الفصل الرابع
فنون البناء والعمران الإسلامي

- عرض سريع عن خصائص العمران الإسلامي.

- أنواع البناء والعمران في الدولة الإسلامية:

أولاً: المدن الإسلامية التي واكبت تطور الحضارة الإسلامية:

١- مدن كانت موجودة قبل الإسلام فأعزها الله وارتفع شأنها بعد الإسلام: مكة المكرمة - المدينة المنورة - بيت المقدس - دمشق - قرطبة.

٢- مدن إسلامية بنيت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. البصرة - الكوفة - الفسطاط.

٣- مدن بنيت في العصر الأموي: القيروان - مدينة واسط

٤- مدن بنيت في العصر العباسي: بغداد - القاهرة.

ثانياً: المساجد، ثالثاً: القصور، رابعاً: الأسوار، خامساً: الأضرحة، سادساً: الأسواق، سابعاً: الفنادق، ثامناً: الحمامات، تاسعاً: الأربطه، عاشراً: الحصون والقلاع، حادي عشر: الخوانك، ثاني عشر: البيمارستانات، ثالث عشر الأسبلة، رابع عشر: الكتاتيب.

- العناصر المكوِّنة للعمران الإسلامي:

المآذن - العقود - الأعمدة - الطرق المتعرجة - المقرنصات - الأبراج - خندق مملوء بالماء حول القلاع - المتراس - المشربيات - الفضاء المكشوف - صحن واسع أمام البناء - الأروقة - المقصورة - التيجان - الأبواب - المنابر - المحاريب - القباب.

الفصل الرابع

فنون البناء والعمران الإسلامي.

- عرض سريع عن خصائص العمران الإسلامي:

قامت الدولة الإسلامية في مدينة الرسول ﷺ، وهي التي كان يطلق عليها يثرب قبل الإسلام، فازدهرت وارتفع شأنها كثيراً بعزة الإسلام، كما رفع الإسلام شأن مدن أخرى خارج الجزيرة العربية كانت موجودة أصلاً قبل النبي ﷺ وعاصرت حضارات قديمة قبل ذلك التاريخ، فأعزها الله بعزة الإسلام، وأصبحت قلاعاً عظيمة من قلاع هذا الدين، ومن هذه المدن غير مدينة الرسول ﷺ: مكة المكرّمة، دمشق، بيت المقدس، قرطبة.

كما أقام المسلمون مدناً أخرى جديدة لتأمين مرابطة الجند ومواصلة الفتوحات الإسلامية مثل: البصرة والكوفة وبغداد والفسطاط والقاهرة والقيروان، وواسط.

ومما يلاحظ على بناء هذه المدن أنها بنيت دون الأنهار أو البحار باتجاه الجزيرة العربية، وفي منابت العشب، كما حرص القادة على بناء أسوار حول هذه المدن لحمايتها من مباغتات الأعداء وفي وسطها مسجد عام للعبادة بجانب دار الإمارة، ومقسمة هذه المدن إلى أحياء (أرباض) متجاورة يفصل بينها شوارع وطرقات متعددة.

ويلاحظ على أحيائها أنها بنيت على شكل مثلثات، يبدأ رأس المثلث من وسط المدينة وقاعدتها ناحية السور الخارجي، وفي هذه الأحياء تسكن القبائل المتجانسة حتى لا تجتمع الأضداد المتباينة[١].

وفي وسط المدينة أيضاً يقع سوق المدينة، وغلب عليه أن يكون بشكل طولي ومسقوف من أعلى على شكل أقواس وبه فتحات لدخول النور والهواء[٢]، وقد تعددت هذه الأسواق حسب نشاطاتها مثل: سوق الفحامين، وسوق الخبازين، النحاسين، الصاغة[٣].

وفي سور المدينة الإسلامية عدة أبواب للدخول والخروج، وعادة ما يكون الباب مرتفعاً يزيد عن قامة الفارس وهو راكب فرسه، كي يتمكن المدافعون عن المدينة، الدخول والخروج بسهولة.

وأما الأسوار فعليها أبراج للمراقبة على أماكن متباعدة، وعادة ما يكون فوق الأسوار طرق منخفضه حتى لا تكون مكشوفة إلى المهاجمين خارج الأسوار، كما يوجد على أطراف الأسوار فوق قامة الفارس فتحات للرمي[٤].

وأما شوارع المدينة وطرقاتها فقد أخذت أشكالاً جمالية وزخرفية تلفت الانتباه[٥]، وتنتشر من أبواب الأسوار طرقات تؤدي إلى داخل المدينة على شكل

(١) محمد عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية / ٢٣٩.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان/ ٢٨٤.
المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ١٤٦، ١٥١.
(٣) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ٩٣، ٩٦
(٤) السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة بقرطبة/ ٣١٢.
(٥) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ١٤٦، ١٥١.

متعرج تضيق أحياناً وتتسع أحياناً أخرى لإعاقة اقتحام العدو، وبجانب أسواق المدينة يوجد مرابط للخيل يطلق عليها الرحاب[1].

وبجوار المساجد ظهرت المدارس الدينية وخاصة في العصر العباسي الثاني حين ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، واهتم الفاطميون بتدريس مذهبهم لإرسال الدعاة إلى العالم الإسلامي، كما اهتم السلاجقة والأيوبيون والمماليك في بناء المدارس بجوار المساجد لتدريس أحكام الدين على أصوله لمحاربة البدع والضلالات التي انتشرت في فترة الحكم الفاطمي لبعض البلاد الإسلامية[2].

(١) السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة بقرطبة/ ٣١٢.

(٢) اليعقوبي، فتوح البلدان/ ٣١١.

الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٢٠٣.

المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ٤٧-وما بعدها

ـ أنواع البناء والعمران في الدولة الإسلامية:

- أولاً: المدن الإسلامية التي واكبت تطور الحضارة الإسلامية:

١ - مدن كانت موجودة قبل الإسلام فأعزها الله وارتفع شأنها بعد الإسلام.

أ- مكة المكرمة

وتسمى بكة؛ لأن الناس يتباكون أي يتزاحمون فيها، ومن هنا يطلق عليها البعض الماسة بمعنى التزاحم، أو لأنها تبك أعناق الجبابرة فتذهب نخوتهم وتخرجهم منها[١] قال تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي كَفَّ أَيْدِيَهُم عَنكُم وأَيْدِيَكُم عَنْهُم بِبطْنِ مَكَّةَ من بعدِ أَنْ أَظْفَرَكم عَلَيْهِم وكان اللهُ بِما تعملون بصيراً﴾[٢] وقيل: مكة وبكة شيء واحد؛ لأن العرب تقلب الميم إلى باء في النطق قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَاركاً وَهُدَىً للعالمين﴾[٣]، وسميت مكة لأنها تقع بين جبلين بمعنى المكوك[٤] أي الوادي، أو بمعنى بيت العبادة، أو لأنها تمك الذنوب أي تنقصها[٥]. ولها أسماء أخرى غير ذلك، فهي أم القرى قال تعالى: ﴿...ولِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومن حولها...﴾[٦] ويطلق عليها الحاطمة لأنها تحطم من يستخف بها، ويطلق عليها البيت العتيق قال تعالى: ﴿...ولْيَطوَّفُوا بالبَيْتِ العَتِيق﴾[٧].

والبيت الحرام قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللّهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِيَاماً لِلنَّاس﴾[٨]

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٥٧-١٥٨.
(٢) سورة الفتح/ الآية ٢٤.
(٣) سورة آل عمران/ الآية٩٦.
(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٥٨.
(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١/ ٥٦٢، ج٥/ ٢١٠-٢١١.
(٦) سورة الأنعام/ ٩٢.
(٧) سورة الحج/ الآية٢٩.
(٨) سورة المائدة/ الآية٩٧.

والبيت المحرم قال تعالى: ﴿ربَّنَا إني أَسْكَنْتُ من ذُرِيتي بِوادٍ غير ذي زَرْعٍ عندَ بيتكَ المحرَّم﴾[1] ويطلق عليها البلد الأمين قال تعالى: ﴿والتينِ والزيتونِ وطورِ سِينِينَ وهَذَا البَلَدِ الأَمِينِ﴾[2] أو البلد قال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهذا البَلدِ﴾[3] وتسمى القادس؛ لأنها تقدُس من الذنوب أي تطهر، والباسَّة؛ لأنها تبس الملحدين وتحطمهم، وتقع مكة في واد مقفر بوسط الطريق التجاري بين اليمن وبلاد الشام، وتخرج منها ثلاثة منافذ أحدها يؤدي إلى اليمن، وثانيها إلى مرفأ جدة، وثالثها إلى الشام، وكل ما نزل عن المسجد الحرام من جهة الغرب يسمى المسفلة، وما ارتفع عنه يسمى المعلاة من جهة ا لشرق، وعرضها عرض الوادي، والكعبة في وسطه، وليس بها شجر مثمر سوى النخيل، وأهلها يشربون من ماء زمزم[4].

وحَرَم مكة مساحة معلومة يحرم انتهاكها أو الصيد أو الرفث فيها، وهي كما حددها إبراهيم عليه السلام نحو عشرة أميال في مسيرة يوم، وهي من طريق الغرب التنعيم ثلاثة أميال، ومن جهة العراق تسعة أميال، وإلى جهة اليمن سبعة أميال، وإلى جهة الطائف عشرون ميلاً، وإلى الجادة عشرة أميال[5]، وهي المساحة التي أقرها نبينا محمد ﷺ وبينها الماوردي بقوله:

«أما الحرم فهو ما يضاف إلى مكة من جوانبها، وحده من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت بني نفار على ثلاثة أميال، ومن طريق العراق على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال، ومن طريق الجعرانه بشعب آل أبي عبدالله بن خالد على

(١) سورة ابراهيم/ الآية ٣٧.
(٢) سورة التين/ ١-٣.
(٣) سورة البلد/ ١.
(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ٢١٧.
(٥) ياقوت. معجم البلدان ج١/ ٢٨١-٢٨٢.

تسعة أميال، ومن طريق الطائف على عرفة من بطن نمرة على سبعة أميال، ومن طريق جده منقطع العشائر على عشرة أميال»[1].

والكعبة بيت الله الحرام، تقع في وسط المسجد الحرام مربعة الشكل، بابها مرتفع عن الأرض نحو قامة الإنسان وارتفاعها إلى أعلى سبعة وعشرون ذراعاً، والحِجْر بجانبها من ناحية الشمال، والطواف من حوله ولا تجوز الصلاة فيه. والحَجَرُ الأسود على ركن الكعبة الشرقي عند باب على لسان الزاوية في مقدار رأس الإنسان، ينحني إليه من يقبله قليلاً، وبئر زمزم ناحية الباب شرقاً وبينهما مقام إبراهيم عليه السلام، والصفا والمروة متقابلان إلى الشرق من الكعبة على طرفي الوادي، الصفا في الجنوب والمروة في الشمال[2].

وتقول الروايات التاريخية: إن أول من اتخذ مكة داراً للإقامة هو نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما جاء بابنه إسماعيل وأمه هاجر زوجة إبراهيم وأسكنهما بمكة وعاد إلى فلسطين حيث كان يقيم فيها هو وبقية أفراد أسرته الأخرى، ويقدر المؤرخون هذه الفترة بأنها كانت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وقد اتخذت هاجر وابنها إسماعيل عريشاً بهذا الوادي الذي وصفه القرآن الكريم بأنه وادٍ غير ذي زرع، وقد أكرم الله إسماعيل وأمه هاجر فانفجرت ماء زمزم محل إقامتهما بمكة، فاجتمعت القبائل المحيطة بمكة وتسمى العماليق، وأقامت معهما بمكة، كما اجتمعت إليهم قبيلة أخرى، فأقامت بجوارهم وتسمى قبيلة جرهم وتزوج إسماعيل من هذه القبيلة وكوّن ذرية منها.

(١) الماوردي. الأحكام السلطانية/ ١٦٤-١٦٥.
(٢) ياقوت الحموي. معجم البلدان ج٤/ ٥٢٧.

ثم تكررت زيارات نبي الله إبراهيم لزوجه وابنه في مكة، وبنى بمساعدة ابنه إسماعيل بيت الله لعبادته تعالى، وأصبحت مكة منذ ذلك الوقت حتى وقتنا الحاضر وإلى قيام الساعة عامرة مليئة بالخيرات وقبلة للمسلمين الذين تهوى أفئدتهم هذه البقعة الطاهرة، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[4].

---

(١) سورة إبراهيم الآية / ٣٧.
(٢) سورة البقرة / ١٢٦-١٢٩.
(٣) سورة الحج / ٢٦-٢٧.
(٤) سورة آل عمران / ٩٦.

وهكذا بدأت الحياة بمكة من أول بذرة زرعها إبراهيم من إسماعيل وأمه هاجر عليهم السلام تمهيداً إلى حياة جديدة ستمتد إلى آلاف السنين، ويظهر فيها آخر الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم ليبلغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة.

ثم جاءَت إلى مكة وانضمت إلى أهلها قبيلة جديدة قادمة من اليمن بسبب دمار سد مأرب تدعى قبيلة خزاعة، وقد تغلبت هذه القبيلة على جرهم فأجلتها عن مكة، ثم تزعم قبيلة خزاعة رجل منها يدعى عمرو بن لحي الخزاعي وهو أول من غير الديانة الحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، فأدخل إلى مكة عبادة الأصنام، وانتشرت هذه العبادة بمكة والجزيرة العربية ثلاثمائة سنة[1]، حتى اجتمعت جرهم مرة أخرى بزعامة رجل منها يدعى قصي بن كلاب، وهو الجد الخامس للنبي محمد ﷺ[2]، فجمع أشتات قبيلته واستعاد السيطرة على مكة من قبيلة خزاعة وطردهم منها، وأطلق على جرهم بعد ذلك قريش التي استمرت سيطرتها على مكة حتى نبوة محمد ﷺ[3].

بدأ قصي بن كلاب بتنظيم الحياة بمكة بعد إجلاء قبيلة خزاعة عنها، بشكل يحفظ وحدتها ومكانتها بين القبائل، فبنى دار الندوة لإدارة شؤون مكة، وكانت هذه الدار ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الشام، تعقد فيها اللقاءات والمشاورات، شريطة أن لايحضر هذه المشاورات من هم دون سن الأربعين،

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ٢١٥.

(٢) قصي بن كلاب. اسمه زيد بن كلاب بن مرة، وإنما أطلق عليه قصي بن كلاب لأنه رحل مع زوج أمه من مكة إلى الشام، ثم عاد إلى مكة مرة أخرى بعد أن أصبح شاباً.

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب/ ١١
القلقشندي، نهاية الأرب/ ٣٩٤.

ومنها تنطلق قوافل التجارة، وفي فنائها تحط القوافل العائدة من الخارج، وفيها يتم الإختتان عند البلوغ.

وأبدى قصي بن كلاب اهتماماً بزوار مكة، فقدم لهم الطعام والشراب، وقسم الخدمات والمسؤوليات فيها على بطون قريش لإرضائها جميعاً حتى لا يظهر التحاسد والتباغض، وبذلك يضمن الوئام ويمنع الفساد والخلاف، وفرض على قريش خَرْجاً تدفعه ليصنع طعاماً في مواسم الحج لزوار مكة، عرف بالرفادة، كما جدد بناء الكعبة وأصبح هو رئيساً عاماً لقريش له القيادة واللواء[1]. ونتيجة لهذه السياسة أصبحت قريش زعيمة القبائل في الجزيرة العربية بلا منازع.

وبعد وفاة قصي بن كلاب صارت الزعامة إلى أبنائه، فتولى ابنه الأكبر عبد مناف السقاية والرفادة وتولى الحجابة واللواء ودار الندوة بنو عبدالدار[2].

ثم زاد أبناء قصي بن كلاب الوظائف بمكة إلى ست عشرة وظيفة إرضاء لبطون قريش توزعت عليهم خوفاً من أي انقسام أو خلاف يضعف من شأن قريش أمام القبائل العربية، وحتى لا تفقد سيطرتها على الحرم، ولأن النزاع في نظرهم لا يتناسب مع قدسية مكة، وتوزعت هذه الوظائف كما يلي:

١- **السدانة**: وهي رعاية الكعبة وخدمة زوارها، وكانت بيد عثمان بن طلحة من بني عبدالدار قبيل ظهور الإسلام.

٢- **السقاية**: وهي تقديم الماء للزائرين، وقد أصبحت هذه المهمة شاقة بعدما طمرت مياه زمزم، وأصبح الحصول على الماء بمكة أمراً صعباً، وقد ظلت

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٢/ ١٨-١٩.
الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٦٠-وما بعدها.
(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ٢١٦.

مياه زمزم غائرة حتى عهد عبدالمطلب الذي أعاد حفر البئر وأعاد استخراج الماء منه، وكانت هذه المسؤوليه بيد العباس بن عبدالمطلب من بطن هاشم قبيل ظهور الإسلام.

٣- **الرفادة**، وهي إطعام الحجيج، وكان قصي بن كلاب فرض الخرج على أهل مكة يدفعونه من أموالهم ليصنع للحجيج طعاماً على اعتبار أنهم ضيوف الرحمن، وكانت هذه المسؤولية بيد الحارث بن عامر من بني نوفل قبيل ظهور الإسلام، ويعد هذا العمل من أفضل المآثر لقريش بسبب تخفيف معاناة كبيرة على الحجيج في الحصول على الطعام.

٤- **اللواء**، وهو الراية يجتمع حولها المحاربون.

٥- **القيادة**، يتولاها شيخ القبيلة أو من ينيبه عنه، وكانت القيادة في قريش بيد أبي سفيان بن حرب بن أمية قبيل الإسلام.

٦- **الملأ**، وهم رؤساء العشائر ممن هم فوق سن الأربعين يجتمعون بدار الندوة فيصدرون القرارات اللازمة.

٧- **العمارة**، وهي إلزام السكان والزائرين مراعاة الأدب والوقار بجوار البيت الحرام.

٨- **الحجابة**، وهي مسؤولية فتح بيت الله الحرام وقفله أمام الزائرين، وكانت مع السدانة بيد عثمان بن طلحة من بني عبدالدار قبيل ظهور الإسلام.

٩- **المشورة**، وهي أن يعرض الأمر على صاحبه قبل تنفيذ الحكم عليه، وكانت مسؤوليتها بيد يزيد بن زمعه بن الأسود من بني أسد قبيل ظهور الإسلام.

١٠- **الأشناق**، وهي جمع الأموال الخاصة بالمغارم كالديات، وكانت الأشناق بيد أبي بكر الصديق من بطن تيم قبل الإسلام.

١١- **القبة**، وهي خيمة توضع فيها أسلحة الجيش عند ضرورة إعلان الحرب.

١٢- **الأعنه**، وهي قيادة الخيل، وكانت القبة والأعنه بيد خالد بن الوليد من بني مخزوم قبل الإسلام.

١٣- **السفارة**، للاتصال بالقبائل الأخرى لحل المشاكل التي تقع معهم، وكانت السفارة والمفاوضات بيد عمر بن الخطاب من بطن عدي قبل الإسلام.

١٤- **الأيسار**، وهي الأزلام التي يضرب بها عند هبل قبل القيام بعمل، وكانت مسؤوليتها بيد صفوان بن أمية من بني جمح قبيل ظهور الإسلام.

١٥- **الحكومة**، للفصل في الخصومات.

١٦- **الأموال المحجرة**، وهي الأموال المسماة للآلهة على شكل هبات، وكانت هي والحكومة بيد الحارث بن قيس من بني سهم قبيل ظهور الإسلام.

وقد ظلت هذه الوظائف موجودة بمكة حتى ظهور الإسلام، فألغاها الرسول ﷺ جميعها ما عدا سدانة البيت والسقاية حيث أوكلت السقاية إلى العباس بن عبدالمطلب وسدانة البيت إلى عثمان بن طلحة بن عبدالدار[1].

- سكان مكة:

سكنت قريش مكة وما يجاورها، وهي عدة بطون، قريش البطاح، وهم الذين سكنوا مكة، وقريش الظواهر وهم الذين سكنوا بظاهر مكة.

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٣/ ٣١٣-٣١٥.

أولاً قريش البطاح: وهم أحد عشر بطناً، لزموا الحرم واتخذوا من التجارة ورعاية البيت الحرام مورداً مالياً لهم، وهذه البطون ستة من ولد كعب بن لؤي وخمسة من ولد قصي وهم كما يلي :

١ - هاشم بن عبد مناف وبنو المطلب بن عبدمناف .

٢ - أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

٣- نوفل بن عبد مناف .

٤ - عبدالدار بن قصي .

٥ - أسد بن عبدالعزى بن قصي .

٦ - عدي بن كعب بن لؤي .

٧- زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب .

٨- تيم بن مرة بن كعب .

٩- سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب .

١٠ - جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب .

١١ - مخزوم بن يقظه بن مرة بن كعب .

وأما بطون قريش الظواهر فهم :

١ - بنو بغيض بن عامر بن لؤي .

٢ - بنو الأدرم بن غالب .

٣- بنو محارب بن فهر .

٤ - بنو الحارث بن فهر .

وقد دانت جميع القبائل في الجزيرة العربية إلى قريش بالطاعة لمسؤوليتها عن الحرم وتأمين الأمن والحماية والطعام والشراب للقادمين إلى مكة، وقد حاولت قريش دائماً أن تتجنب أسباب النزاع والخلاف بمكة كي تحافظ على هيبتها وزعامتها وسلامة تجارتها، وهي التي أوجدت تلك النظم بمكة ووزعتها على جميع البطون لترضيتهم ومنع الخلاف بينهم، وقبل الإسلام بقليل عقدت قريش حلفاً أسموه حلف الفضول لمنع الظلم بمكة وتأمين الحماية والأمن والسلامة لأهلها والقادمين إليها، وقد حضر محمد ﷺ انعقاد هذا الحلف قبل نبوته وأثنى عليه فقال: «لقد شهدت في دار ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[1].

وقبل الإسلام كادت أن تقع خلافات ونزاعات بين بطون قريش إلاّ أن زعماءها كانوا يحسمون النزاع قبل أن يؤدي إلى قتال، ومن أمثلة ذلك أن قريشاً هدمت الكعبة بعد أن تصدعت وأرادت بناءها من جديد، واختلفت البطون على وضع الحجر الأسود في مكانه، لولا أنهم قبلوا أن يتحاكموا إلى أول من يدخل عليهم، فكان الداخل عليهم محمداً ﷺ قبل نبوته، فحسم الخلاف بينهم بأن وضع الحجر الأسود في ردائه، وشاركوا جميعاً برفع الرداء ثم تناوله الرسول ﷺ ووضعه في مكانه.

- أسواق مكة:

تعوّد العرب أن يؤدوا حجهم في أشهر معينة من كل عام هي: شوال وذي القعدة وذي الحجة، وقبل أداء مشاعرهم كانوا يجتمعون في أسواق ما بين مكة والطائف، وهي سوق عكاظ، وسوق ذي المجنة، وذي المجاز، يجلسون فيها

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ج١/ ١٤٥.

أشهراً للبيع والشراء والتعارف وعقد الأحلاف وسماع القصائد الشعرية وفنون الأدب الأخرى، فهي بمثابة أسواق معاشية واقتصادية واجتماعية وفكرية[1]، وكانت قريش مسؤولة عن هذه الأسواق، فهي التي توفر الأمن والحماية لجميع الحاضرين إليها، فلربما يلاقي أحدهم قاتل أبيه أو أخيه فلا يتعرض له بسوء، وبعد أن تنقضي هذه الأسواق يرتحل الناس لأداء مناسكهم ثم يعودوا إلى ديارهم.

- لماذا ظلت قريش زعيمة القبائل العربية دون منافس:

١- بسبب سكناها وإقامتها في حرم مكة، فإليها تحج القبائل العربية، وبها يأمنون ويلاقون التكريم والرعاية طيلة إقامتهم بمكة من قريش.

٢- ظهر زعماء لقريش حافظوا على وحدتها وتماسكها واحترامها بين القبائل من أمثال قصي بن كلاب، هاشم بن عبدمناف، عبدالمطلب، أبو سفيان بن أمية.

٣- تجارة قريش، مما سبب لها ثروة مادية، ولم تكن هذه التجارة ما بين مكة والشام فقط، وإنما كانت قريش وسيطاً تجارياً للدول المحيطة بالجزيرة العربية، وكان تجار مكة ذوو مواهب تجارية عالية جعلتهم ينفردون بها دون غيرهم، علاوة على أن هيبة قريش بين القبائل العربية ومكانتها بين الدول الأخرى جعلت تجارتها في مأمن من أي اعتداء عليها، وهي تسير في صحاري وطرق شاقة وبعيدة، كما أنها كانت تلاقي الدعم والمساعدة من القبائل العربية وهي تمر في ديارهم إلى الجهات المختلفة، وقدرة قريش على هذه الوساطة التجارية خلال الجزيرة العربية لا يمكن أن تستطيع على أدائها أية قبيلة أو جماعة أخرى من أي جهة كانت غير قريش.

---

(١) اليعقوبي، تاريخه ج١/ ٢٢٧.

وقبل الإسلام أرسل عبد مناف أبناءَه الأربعة إلى البلدان المجاورة لعقد اتفاقيات تجارية معها، وهم هاشم، وقد عقد اتفاقات مع الروم في بلاد الشام، وعقد المطلب اتفاقات مماثلة مع اليمن، وعقد نوفل اتفاقات مع الفرس، بينما عقد عبدشمس اتفاقات مع الحبشة.

وقد بلغ اهتمام قريش بالتجارة أن قسموها إلى قسمين، قوافل في الشتاء وأخرى في الصيف، وهي ما وصفها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[1].

٤- المصالح لمشتركة التي عقدتها قريش مع القبائل العربية داخل الجزيرة العربية أكسبت قريشاً الزعامة والاحترام، ففي حين كانت قريش تقدم الطعام والماء والأمن للزائرين والحجاج إلى مكة كانت هذه القبائل تقدم العون والمساعدة والأمن إلى قوافل قريش التجارية، ولا تعتدي عليها بأي حال من الأحوال، وقد تطورت هذه العلاقات بين قريش والقبائل الأخرى إلى تحالف عسكري ودفاعي عند الحاجة فيما لو احتاجت قريش إلى ذلك.

٥- علاقات الود والصداقة التي أقامتها قريش مع الدول المجاورة أكسبت قريشاً الأمن والاستقرار بسبب رغبة هذه الدول عدم التدخل في شؤون قريش والقبائل الأخرى داخل الجزيرة العربية، وكثيراً ما كانت تقع الحروب والنزاعات على أطراف الجزيرة العربية بين الدول المحيطة، إلا أن قريشاً ظلت بمنأى عن هذه النزاعات، ولم تفكر هذه الدول إدخال قريش في حلبة هذه الحروب.

---

(١) سورة قريش / ١-٤.

٦- تعد قريش أعلى القبائل العربية نسباً وثقافةً وفكراً ولسانهم أقوى الألسنة أداءً وفصاحة، وكان العرب جميعاً يعتزون بلغة قريش ويحرصون على أن يكون أداؤهم الشعري بلهجتها، كما كانوا يتبعون عاداتها وتقاليدها وأحكامها.

ظهور النبي المصلح بمكة وحاجة العالم إلى الإصلاح:

في أواخر القرن السادس الميلادي كان العالم يعيش في صراع ديني وسياسي؛ فاليمن كانت تحت النفوذ الحبشي ثم الفارسي، ووقعت الحيرة في العراق تحت النفوذ الفارسي، بينما كانت بلاد الشام تقع تحت النفوذ الروماني، وقد تواصل النزاع بين هاتين الدولتين على مناطق النفوذ، وانتشرت الوثنية بين العرب، وعجزت الديانات السابقة على إقناع الناس بصلاحيتها بعدما أصابها التحريف والتزييف، وأصاب أهل مكة الترف، وظهرت طبقة الموالي، وطبقة الصرحاء، وعم الفساد نتيجة لذلك، وضعف التماسك بين القبائل، وسئم الناس من العداوات والثارات وعبادة الأوثان، فتطلع الناس في الجزيرة العربية إلى مصلح يخلصهم مما هم فيه، وفجأة يظهر هذا المصلح على الناس بمكة وهو محمد ﷺ فبدأ بالدعوة إلى الوحدانية ونبذ عبادة الأوثان، ودعا إلى المساواة وتوحيد الناس على عبادة أن لا إله إلاّ الله، وأن القرآن الذي ينزل به الوحي على محمد هو كلام الله، كما دعا الناس إلى الإيمان بالحساب والعقاب في الآخرة، كما دعا إلى مكارم الأخلاق.

وبدأ بدعوته بين أقربائه وأبناء عشيرته وأهل بيته، ثم انتقل في التبليغ على نطاق واسع بين القبائل العربية وإلى مراسلة حكام عصره يدعوهم إلى الإسلام، حتى ظهرت للناس دعوة الإسلام على أنها ديانة سماوية عالمية إلى الناس كافة، وأن محمداً رسول الله إلى الناس جميعاً.

إلا أن هذه المفاهيم التي نادى بها الرسول ﷺ لم تعجب قريشاً بسبب ما تعّودوا عليه وما ورثوه عن الآباء والأجداد ولأن مفاهيم الإسلام تفقدهم الزعامة وتغير موقعهم بين القبائل والدول، فاستعملوا مع الرسول وأصحابه كافة الوسائل والطرق لثنيه عن دعوته، فهاجر بعض أصحابه إلى الحبشة فراراً من أذى قريش، وانتقلت الدعوة إلى يثرب، فآمن أكثر أهلها بالإسلام مما هيأ لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه إليها، فأصبحت يثرب مدينة الرسول ﷺ مركزاً للدعوة وانتشار الإسلام، وتكون فيها مجتمع المسلمين الجديد من المهاجرين وإخوانهم الأنصار من أهل المدينة، فأصبح هذا المجتمع الجديد من القوة بمكان بحيث لا تستطيع أية قوة أخرى القضاء عليه، بل وعجزت قريش وحلفاؤها من القضاء على دين الله، حتى أذن الله بالفتح ودخل المسلمون إلى مكة فاتحين، وتحول أهلها إلى مؤمنين بدين الله، وبدأ دخول القبائل في دين الله أفواجاً حتى عم الجزيرة العربية كلها، وانتشر الإسلام في أنحاء الأرض بفضل من الله، كما أصبحت مكة قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وستظل هكذا إلى قيام الساعة.

ب ـ المدينة المنورة:

مدينة الرسول ﷺ، العاصمة الأولى للدولة الإسلامية، تقع في أرض الحجاز

وتبعد المدينة عن مكة عشر مراحل[٢]، وعن الكوفة عشرين مرحلة، وعن البصرة ثماني عشرة مرحلة، وعن الرقة نحو عشرين مرحلة، وعن البحرين نحو

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٦٧.

(٢) المرحلة: المسافة يقطعها السائر في نحو يوم.
مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط ج١/ ٣٣٥.

خمس عشرة مرحلة، وعن دمشق نحو عشرين مرحلة، ومثلها عن فلسطين[١] وقد وصفها ياقوت الحموي فقال: «وهي في حرة سبخة الأرض، ولها نخيل كثيرة ومياه، وزروعهم ونخيلهم تسقى من الآبار»[٢] «وأعذب مياهها آبار العقيق»[٣] يقال لسكانها مَدَني، وهي طيبة الهواء، وتمرها الصيحاني لا مثيل له في العالم، ويحمل حب اللبان منها إلى سائر البلدان.

لها تسعة وعشرون اسماً هي: المدينة، طيبة، طابة، المسكينة، العذراء، الجابرة، المحبة، المحببة، المحبورة، يثرب، الناجية، الموفية، ، أكالة البلدان، المباركة، المحفوفة، المسلمة، المجنة، القدسية، العاصمة، المرزوقة، الشافية، الحيرة، المحبوبة، المرحومة، جابرة، المختارة، المحرمة، القاصمة، طبابا[٤].

وسميت قديماً يثرب؛ لأن أول من سكنها يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح[٥]، فلما نزلها الرسول ﷺ غير اسمها إلى طابة وطيبة كراهة لمعنى يثرب[٦] سكنتها قبل الإسلام قبائل عربية متفرقة لا تربطهم روابط قوية تجمعهم وتوحدهم، وأشهر هذه القبائل الأوس والخزرج، غير أن الحياة فيها قد انتظمت لأول مرة في تاريخها بعدما هاجر إليها الرسول ﷺ هو وأصحابه المهاجرون وأقاموا مع إخوانهم الأنصار من أهلها.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ١٠٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ٩٧.

(٣) المصدر نفسه ج٥/ ٩٨.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ٩٨.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ٤٩٣.

(٦) يقول أهل اللغة: إن معنى التثريب الإفساد، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثاً إنما هي طيبة.

وكان أول دخول الإسلام إليها فيما رواه ابن إسحاق من ستة أشخاص من الخزرج جاؤوا إلى مكة في السنة العاشرة من البعثة النبوية فلقيهم الرسول ﷺ سراً عند جمرة العقبة بمنى فكلمهم عن دين الله فأسلموا وواعدوا لقاء الرسول ﷺ في العام القادم وعادوا إلى المدينة ودعوا الناس إلى الإسلام حتى فشا فيهم[1]، ثم جاؤوا في العام القادم اثني عشر رجلاً فبايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الأولى سراً بالمكان نفسه الذي قابلوه فيه السنة الماضية، وقد أطلق على هذه المبايعة بيعة العقبة الأولى أو بيعة النساء حيث بايعهم على أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم من إملاق ولا يأتوا ببهتان يأتونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوه في معروف، وعاد الوفد إلى المدينة فانتشر الإسلام على أيديهم فيها ووفوا بما بايعوا عليه الرسول ﷺ[2]. وفي العام المقبل الثاني عشر من البعثة النبوية جاء من أهل المدينة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ممن دخلوا في دين الله، فواعدهم الرسول ﷺ أن يلتقي بهم عند العقبة من أوسط أيام التشريق، فجاءهم ليلاً فبايعهم على أشياء جديدة، أن يمنعوه بما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وحدد لهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ليكونوا كفلاء على أهليهم في المدينة، وعاد الوفد فوفوا بما عاهدوا عليه[3].

وكانت هذه المبايعة بمثابة التمهيد للهجرة إلى المدينة، وخرج المسلمون من مكة تباعاً إلى المدينة ولحقهم الرسول ﷺ، وأقاموا مع إخوانهم الأنصار على ما تعاهدوا عليه.

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ج١/ ٥٩٢ وما بعدها.
(٢) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ج٢/ ٦٠٣ وما بعدها.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ج٢/ ٨٦-٩٦.

وفي المدينة أقيمت دولة الإسلام لأول مرة بقيادة الرسول ﷺ فانتظمت حياة المسلمين الدينية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، وفيها أذن بالقتال لأول مرة، فبدأ الصراع بين الحق والباطل، وفيها تكون جيش الإسلام لأول مرة، ليبدأ الجهاد مشواره الطويل داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وكان أول عمل قام به الرسول ﷺ عند وصوله إلى مشارف المدينة هو بناء مسجد قباء، ثم دخل المدينة وبنى مسجده فيها، فقد جعل سقفه من الجريد وأعمدته من جذوع النخل، واتجه في صلاته نحو بيت المقدس، ثم تحول نحو الكعبة بعد نحو ثمانية عشر شهراً، وبقي مسجد الرسول ﷺ نحو ما كان عليه إلى خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وزاد في بنائه الخليفة عمر سنة ١٧هـ[١].

ووسع فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافته سنة ٢٩هـ، ثم توالت الزيادات والتوسعات عليه في خلافة الوليد بن عبدالملك سنة ٨٩هـ[٢]، وهكذا زيد عليه في العصور الإسلامية حتى أصبح على ما هو عليه الآن من الزيادات والتوسعات الكبيرة.

وفي حياة الرسول ﷺ كان مسجده في وسط المدينة وحوله أحياؤها وشوارعها، وجبل أحد في شمالها على بعد نحو فرسخين منها وفيه قال الرسول ﷺ: «**جبل يحبنا ونحبه، وهو على باب من أبواب الجنة**»[٣]، وقال حين توجه إليها في الهجرة: «**اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَيْ ما بمكة من البركة**»[٤]، وقال ﷺ

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ١٠٢.
(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ١٠٣.
(٣) صحيح مسلم م٧/ ٦١.
(٤) المصدر نفسه م٤/ ١١٥.

فيها: «ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»[1].

وبعد الإسلام أصبح أهل المدينة من المهاجرين والأنصار متحابين في دين الله قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

وانطلقت رايات الجهاد من مدينة الرسول ﷺ، وسقطت الوثنية بمكة وسائر أنحاء الجزيرة العربية، وشهدت المدينة أشهر الغزوات في الإسلام، غزوة أحد وغزوة الأحزاب، وفي المدينة بقيع الغرقد مدفن الصحابة رضوان الله عليهم، وفي حجرة عائشة رضي الله عنها بجوار مسجد الرسول ﷺ دفن الرسول ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وهي الآن ضمن مسجد الرسول ﷺ بعد التوسعات التي حصلت عليه، وبقيت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية مركز الإشعاع للدعوة والجهاد طوال خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ثم انتقل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الكوفة.

ومن المدينة تخرج صحابة الرسول ﷺ الذين حملوا راية الجهاد وفتحوا البلدان ونشروا الإسلام، وفيها اكتمل نزول الوحي على الرسول ﷺ وجمع القرآن الكريم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتخرج العلماء وتوزعوا في الأمصار لينشروا أحكام الدين وتعاليم الإسلام في العواصم والبلدان.

---

(١) نفسه م٤/ ١٢١.

(٢) سورة آل عمران/ الآية ١٠٣.

ج- بيت المقدس

يتعلق الحديث عن بيت المقدس بعناصر رئيسية هي:

أسماؤها، أول من أسسها، موقعها، بناء المسجد الأقصى لأول مرة في تاريخها، الحملات التي تعرضت لها عبر التاريخ، العهدة العمرية، بناء المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، والأماكن المقدسة الأخرى الملحقة بهما بعد الإسلام، مكانة بيت المقدس عند المسلمين.

- أسماء بيت المقدس وأول من أسسها:

أطلق الكنعانيون وهم أول من سكن فلسطين من العرب أطلقوا على القدس اسم أورسالم وهو اسم مركب من مقطعين، المقطع الأول أور ويعني بيت والمقطع الثاني سالم ويعني السلام فهي بيت السلام أو مدينة السلام، وقد حرف اليهود اسمها الأصلي هذا فأطلقوا عليها أورشاليم؛ لأن اليهود يقلبون السين إلى شين، وهي في اللاتينية جرو سالم gerusalem وفي اليونانية هيروسوليما، وأطلق عليها اليبوسيون وهم إحدى قبائل العرب الكنعانيين أطلقوا عليها اسم يبوس نسبة إلى أحد ملوكهم[1].

ثم استولى عليها الرومان فأطلقوا عليها اسم إيليا نسبة إلى أحد ملوكهم إيليا كابيتوليا هادريان الذي استولى عليها سنة ١٣٥م، وبعد الفتح الإسلامي سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م أطلق عليها المسلمون اسم بيت المقدس أو القدس الشريف[2] لما

(١) محمد أديب العامري، عروبة فلسطين في التاريخ/ ١٨.

(٢) شوقي شعث، مجلة التاريخ العربي / ٧٩.
شفيق محمود، تاريخ القدس/ ١٧ وما بعدها.

تحمله هذه المدينة من التقديس والتبريك حسب ما ورد عنها في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿..وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾(٣)، وهي بيت المقدس(٤) وقوله ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا (مسجد الرسول ﷺ في المدينة) والمسجد الحرام (بمكة) ومسجد بيت المقدس (بفلسطين)**»(٥).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي مسجد وضع على الأرض أولاً؟ قال: «**المسجد الحرام**. قلت: ثم أي؟ **قال البيت المقدس وبينهما أربعون سنة**»(٦).

وأما أول من سكنها وأسسها منذ فجر التاريخ، فهم العرب الكنعانيون قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام أي قبل أن يهاجر إليها إبراهيم الخليل عليه السلام قادماً إليها من العراق، وقد ذكر البلاذري والواقدي هؤلاء الكنعانيين بأنهم قبائل عربية جاءت إلى فلسطين من الجزيرة العربية، واستقرت فيها دون انقطاع حتى وقتنا الحاضر(٧)، ولهذا فإنه يطلق على فلسطين أرض كنعان نسبة إليهم، وأن هؤلاء

---

(١) سورة الإسراء/ الآية١

(٢) سورة البقرة/ الآية ٣٠.

(٣) سورة الأنبياء/ الآية ٧١.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ١٩٦.

(٥) صحيح مسلم م٤/ ١٢٦.

(٦) رواه البخاري ومسلم/ ٣٥٦، ابن خلكان. وفيات الأعيان ج١/ ٤٥٥.
ابن كثير. البداية والنهاية ج١١/ ٢٤.

(٧) انظر: الدباغ. بلادنا فلسطين ج٩ ق٢/ ٢٢. وما بعدها.

الكنعانيين دخلوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي لها، وظلوا هم أهل بيت المقدس وسائر فلسطين بالرغم مما تعاقب على فلسطين من حملات مختلفة من القوى الخارجية من فرس و روم وصليبيين، وهذا ما أثبتته تقارير الباحثين والمؤرخين وعلماء الآثار(١).

وقد نشط اليهود جاهدين باستمرار على البحث عن أي أثر يثبت علاقتهم بفلسطين عبر التاريخ، وأنفقوا في سبيل ذلك مليارات الدولارات فلم يجدوا أي شيء لهم من هذا القبيل، وجميع الآثار التي وجدوها هي لسكانها الأوائل الكنعانيين أو للدول التي استولت عليها عبر التاريخ من الفرس أو الروم وللمسلمين بعد ذلك من الأمويين والعباسيين وإلى دول إسلامية أخرى حكمتها مثل: الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين(٢).

وأما موقع بيت المقدس، في وسط فلسطين، الجزء الغربي من بلاد الشام، وفلسطين أحد الأجناد الخمسة لبلاد الشام وهي جند فلسطين، جند الأردن، جند دمشق، جند حلب، جند قنسرين(٣).

وتقع مدينة القدس على سلسلة جبال عالية ذات سفوح تحيط بها من جميع الجهات، وأسهل جهة يمكن الدخول إليها هي الجهة الشمالية(٤).

---

(١) انظر: شوقي شعث. القدس عربية، مجلة التاريخ العربي / ٨٠-٨١.

(٢) انظر: البحث المقدم من سهيل زكار.
مجلة التاريخية، دارة الملك عبدالعزيز
عدد خاص ضمن فعاليات. ندوة المملكة العربية السعودية وفلسطين ٢٩ من محرم ١٤٢٢هـ.
شوقي شعث. القدس عربية. مجلة التاريخ العربي / ٨٦.

(٣) ياقوت الحموي. معجم البلدان ج٥/ ١٩٦.

(٤) خليل طوطح وحبيب خوري، جغرافية فلسطين/ ١٠٦-١٠٧.

وتنحدر هذه الجبال التي تقع عليها مدينة القدس انحداراً شديداً نحو الشرق باتجاه غور فلسطين المجاور لغور الأردن، ويفصل بينهما نهر الأردن (الشريعة) الذي يصب في البحر الميت (البحيرة المنتنة)، وترتفع مدينة القدس عن مستوى سطح البحر ٨٠٠م[١]، وهي الآن قسمان: القسم القديم ويقع داخل أسوار مدينة القدس وله ثمانية أبواب، وأما القدس الجديدة فتقع خارج أسوار المدينة القديمة[٢]، وهي شرق البحر الأبيض المتوسط وتبعد عنه، ٥٢كم، وهي غرب البحر الميت وتبعد عنه ٢٢كم، وهي غرب عَمَّان عاصمة الأردن وتبعد عنها٨٨كم، وتبعد عن دمشق ٢٩٠كم، وعن بيروت ٣٨٠كم، وعن القاهرة ٥٢٨كم[٣]، وقد وصفها الحموي فقال عنها بأنها متوسطة الحر والبرد، قلَّما يقع فيها ثلج، كثيرة الخيرات؛ لأن الله جمع فيها السهل والجبل والأغوار، ففيها الأشياء المتضادة مثل: اللوز والرطب والجوز والتين والزيتون والموز[٤].

وأما عن بناء المسجد لأول مرة في تاريخ المدينة:

فقد بناه إبراهيم الخليل عليه السلام بعد بناء الكعبة بأربعين سنة كما جاء عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي مسجد وضع على الأرض أولاً؟ قال: «**المسجد الحرام**. قلت: ثم أي؟ قال: **البيت المقدس وبينهما أربعون سنة**»[٥].

---

(١) مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين ج٢/ ١٨٨.

(٢) الدباغ. بلادنا فلسطين ج٢/ ١٨٩.

خليل طوطح، حبيب خوري، جغرافية فلسطين/ ٩٢.

(٣) الدباغ. بلادنا فلسطين/ ١٨٩.

(٤) ياقوت الحموي. معجم البلدان ج٥/ ١٩٦.

(٥) فتح الباري ج٦/ ٣٣٦٦، ابن الجوزي، تاريخ بيت المقدس/ ٣٥.

وتذكر بعض المصادر أن إبراهيم عليه السلام بنى المسجد الأقصى بالتعاون مع أحد ملوك الكنعانيين لفلسطين ويدعى ملكي صادق وهو ممن يؤمن بعقيدة التوحيد، وكان صديقاً لنبي الله إبراهيم عليه السلام[1].

الحملات التي تعرض لها بيت المقدس عبر التاريخ:

تعرضت فلسطين للغزو البابلي بزعامة نبوخذ نصر سنة ٥٩٧ق.م، فقام بتدمير البيت المقدس تدميراً كاملاً، وسبى أهل بيت المقدس إلى العراق، ثم جاء بعد نبوخذ نصر حاكم آخر هو قورش الذي أعاد السبي إلى بيت المقدس وأعاد بناء البيت المقدس مرة ثانية سنة ٥١٥ق.م، ثم تعرض بيت المقدس لغزو الإسكندر الأكبر المقدوني سنة ٣٣٢ق.م في طريق حملته إلى مصر، ثم استولى عليها الرومان سنة ٦٣ق.م، وجاء تيطس الروماني سنة ٧٠م فدمر بيت المقدس والمسجد المقدس تدميراً كاملاً، ثم دخلها إيليا هادريان الروماني سنة ١٣٥م ودمر ما فيها تدميراً كاملاً من جديد، وأطلق على المدينة إيليا نسبة إليه، وجاء دور الفرس فاستولوا عليها سنة ٦١٤م، وخربوا ما فيها خراباً كاملاً، ثم عاد الرومان إليها من جديد بزعامة هرقل سنة ٦٢٧م واستولوا عليها وظلت بأيديهم حتى الفتح الإسلامي سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م.

ففي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أرسل سنة ١٣هـ الجيوش الإسلامية الأربعة إلى بلاد الشام بنية الفتح ونشر الإسلام فيها، وكان توجيه هذه الجيوش الأربعة إلى جهات مختلفة بحيث يسير عمرو بن العاص إلى فلسطين

(١) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١/ ٥. الدباغ. بلادنا فلسطين ج٦ ق٢ / ٢٧.

وأن يسير شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وأن يسير أبو عبيدة عامر بن الجراح إلى شمال الشام نواحي حلب وحمص[1].

وقد لقيت هذه الجيوش الإسلامية صعوبة في فتح بلاد الشام نظراً لكثرة حشود الروم المنتشرة في أماكن متفرقة منها، فراسل قادة الفتح أبا بكر ليرسل إليهم إمدادات جديدة، ووصفوا له حشود الروم وصعوبة موقفهم، فأمدهم بخالد بن الوليد وكان في العراق، فسار إليهم وحقق انتصارات عظيمة في أماكن متفرقة من بلاد الشام أهمها انتصاره على جموع الروم في اليرموك، ثم توفي الخليفة أبو بكر في جمادي الثانية سنة ١٣هـ وتولى الخلافة مكانه عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستبدل قيادة الجيوش في بلاد الشام، فعين عليها أبا عبيدة عامر ابن الجراح بدلاً من خالد بن الوليد، وأوصى قادة الفتح بمواصلة الفتح في أنحاء بلاد الشام كما كانت الخطة سابقاً منذ خلافة أبي بكر[2].

ثم اجتمعت هذه الجيوش كلها حول بيت المقدس، فرغب صفرونيوس الروماني أن يسلم المدينة للمسلمين، ولكنه اشترط أن يتم ذلك على يد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل أبو عبيدة إلى الخليفة عمر يخبره برغبة صفرونيوس، فقدم الخليفة لذلك من المدينة إلى بيت المقدس وتسلم المدينة من صفرونيوس ودخلها المسلمون دون قتال بعد أن كتب الخليفة عمر عهد الصلح مع الروم وهو ما يعرف بالعهدة العمرية[3].

---

(١) انظر: الواقدي، فتوح الشام ج١/ ٢٣٠ وما بعدها.

(٢) ابن أعثم، كتاب الفتوح ج١/ ١١٦- وما بعدها.

(٣) الواقدي، فتوح الشام ج١/ ٢٣١ وما بعدها.
البلاذري، فتوح البلدان/ ١٤٤.

نص العهدة العمرية:

«هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين عمر أهلَ إيليا (بيت المقدس) أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ومقيمها وبريِّها وسائر ملتها، أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حدها ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن[1] وعلى أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منها فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان فيها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أرضه فإنه لا يؤخذ منه شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهدالله وذمته وذمة رسول الله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية ابن أبي سفيان» سنة ١٥ هـ[2].

دلالات هذه الوثيقة:

يدل مجيء خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بيت المقدس بنفسه على دلالات مهمة هي اهتمامه بها من دون سائر البلاد ليشهد فتحها واستلامها من الروم، وهو أمر لم يحصل في أي بلاد أخرى.

(١) أهل المدائن: أهل المدن الأخرى التي فُتحَت على يد المسلمين.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٥٨-١٥٩.

- كما أن تسليمها بعهد خاص مع الخليفة عمر يطلق عليه العهدة العمرية له دلالة مهمة على قدسية هذه المدينة عند المسلمين، وأنها أصبحت أمانة في يد المسلمين.

- أشارت العهدة على تحريم بيت المقدس على اليهود بعدم إقامتهم فيها، وهو اتفاق بين المسلمين والنصارى، وقد حرمها القرآن الكريم عليهم قال تعالى في سورة المائدة ﴿**قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ..**﴾[1].

وكان الرسول ﷺ قد أخبر عن فتح بيت المقدس وأنها ستكون للمسلمين، ففي رواية عن شداد بن أوس ابن أخي حسان بن ثابت أن الرسول ﷺ قال له: **يا شداد، ما سبب قلقك؟** فقال: يا رسول الله، ضاقت بي الأرض، فقال: «**ألا إن بيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله**». فكان كما أخبر الرسول ﷺ وقبر شداد ببيت المقدس تحت سور المسجد الأقصى[2].

- كما نصت الوثيقة بوضوح على ضرورة خروج الروم من بيت المقدس آمنين على أرواحهم وممتلكاتهم، وأن لا يبقى ببيت المقدس سوى سكانها الأصليين وآخرين من أهل الأرض كانوا يعيشون فيها مع أهلها من غير اليهود والروم، مما يدل على أن هؤلاء السكان الذين أشارت إليهم الوثيقة من غير اليهود والروم هم بالضرورة سكانها الأصليون من العرب الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي، وأن الروم غزاة دخيلون على البلاد فليرحلوا عنها كما نصت الوثيقة، وبالرغم من أن هذه الوثيقة نصت على حرية الاختيار لسكانها أن يظلوا

(١) سورة المائدة/ الآية ٢٦.

(٢) مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل/ ٢٦٣.

على دياناتهم السابقة أو أن يدخلوا الإسلام، فمن ظل على دينه يدفع الجزية للمسلمين على أنهم أهل ذمة وأن تبقى كنائسهم لهم لا ينتقص المسلمون منها شيئاً، ولكن أهلها فضلوا الإسلام فدخلوا في دين الله جميعاً.

هذا وقد أقام الخليفة عمر والياً على فلسطين قبل عودته إلى المدينة علقمة بن مجزز[1]، وظلت فلسطين بعد ذلك عبر العصور الإسلامية المتتابعة ولاية إسلامية تتبع الخلافة الأموية والعباسية بما فيها من دول إسلامية أخرى تبعت الخلافة العباسية أو منفصله عنها مثل: الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية والسلجوقية والدولة المملوكية، والدولة العثمانية.

وفي أواخر القرن الخامس الهجري تعرضت بلاد الشام إلى حملات صليبية متتابعة منذ سنة ٤٩٢هـ، فاستطاع الصليبيون أن يقيموا لهم إمارات صليبية فيها فترة من الزمن في كل من الرها، أنطاكية، طرابلس الشام، عكا، حيفا، يافا، بيت المقدس، وقد فعل الصليبيون بأهل فلسطين عامة وأهل بيت المقدس خاصة الأفاعيل المنكرة، وذبحوا أعداداً كبيرة من سكانها، وقد ظلت بيت المقدس بيد الصليبيين حتى حررها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وجاء بعده المماليك فحرروا سائر بلاد الشام من الممالك الصليبية، وظلت بيت المقدس بعد ذلك بيد أهلها المسلمين.

الاحتلال البريطاني لفلسطين سنة ١٩١٧م:

وقعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م بين دول الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا من جهة، وبين الدولة العثمانية وألمانيا والنمسا والمجر من جهة ثانية

(١) الواقدي. فتوح الشام ج١/ ٢٤٤. الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٦٠، ابن عساكر تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج١/ ١٧٦.

وفيما كانت دول الحلفاء تعطي وعوداً وتصريحات علنية للعرب بالاستقلال التام، أثناء الحرب، كانت هذه الدول نفسها تخفي اتفاقيات سرية فيما بينها لتقسيم بلاد العرب بين دول الحلفاء ومنح فلسطين لليهود لإقامة وطن قومي لهم فيها، وأثناء الحرب أوكلت بريطانيا وفرنسا سراً إلى كل من سايكس البريطاني وبيكو الفرنسي إبرام الخطط اللازمة لتنفيذ هذه المشاريع فور انتهاء الحرب، فأصدر سايكس وبيكو اتفاقهما الذي يمثل دولتيهما سنة ١٩١٦م ما يعرف باتفاق سايكس بيكو والذي تنص بنوده على تقسيم بلاد العرب بين دول الحلفاء، وأن توضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني تمهيداً لإقامة وطن قومي فيها لليهود.

وقد باشرت بريطانيا وفرنسا اتصالاتهما مع باقي الدول لتنفيذ هذا المخطط، كما بادرت الحكومة البريطانية بمنح يهود العالم وعداً بهذا الخصوص سنة ١٩١٧م أطلق عليه وعد بلفور يقضي بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لهم. وقد وجه بلفور وزير خارجية بريطانيا حينئذ في الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧م وجه وعداً مكتوباً إلى زعيم الحركة الصهيونية روتشيلد قائلاً له «عزيزي اللورد روتشيلد، إن من دواعي غبطتي الجمه أن أنقل لكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة (ملك بريطانيا) التصريح التالي بعطفنا على الآمال الصهيونية الذي عرض على الوزارة (البريطانية) فوافقت عليه: إن حكومة صاحب الجلالة لتنظر بعين العطف إلى مسألة إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وستبذل أقصى ما في وسعها من مساع لتذليل إحراز هذه الغاية، مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شيء من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة حالياً في فلسطين أو الحقوق الأهلية والسياسية التي يتمتع اليهود بها في

أي بلد آخر وأكون مديناً لكم بالجميل إذا ما تكرمتم فأبلغتم هذا التصريح إلى علم ا لاتحاد الصهيوني»[1].

وفيما يلي بعض الملاحظات الهامة حول هذا التصريح الذي جاءت صياغته بعناية بالغة من قبل سايكس البريطاني وبيكو الفرنسي بالتشاور مع الحكومة البريطانية وزعماء اليهود.

أولاً: اعتبر تصريح بلفور أن اليهود هم أصحاب فلسطين، وأنهم يقيمون فيها، وهذا مخالف للواقع إذ إن فلسطين قبل سنة ١٩١٧م كان سكانها عرباً مسلمين، كما اعتبر التصريح عرب فلسطين أقلية في بلادهم وهذا ظلم وخداع واضح.

ثانياً: أعطى التصريح الحق لليهود بإقامة دولة لهم في فلسطين تحت رعاية ومساعدة بريطانيا.

ثالثاً: أعطى التصريح أهل فلسطين حقوقاً ثانوية دينية واجتماعية تحت سلطة سياسية لليهود فقط على اعتبار أن أهل فلسطين رعايا أقلية مع اليهود الأكثرية، وهذا مخالف للواقع إذ كان أهل فلسطين هم الأكثرية الساحقة في فلسطين.

رابعاً: أعطى التصريح لليهود على سبيل الاحتياط حق الاحتفاظ بجنسياتهم السابقة في البلاد التي يعيشون فيها قبل انتقالهم إلى فلسطين، وهذا البند لازال معمولاً به حتى الآن، فجميع اليهود الذين يقيمون الآن بفلسطين يحملون جنسيتين الجنسية الإسرائيلية في فلسطين والجنسية السابقة التي كانوا يتمتعون بها قبل هجرتهم إلى فلسطين، وهذا عمل احتياطي وضعته بريطانيا لصالح اليهود فيما لو فشل المشروع البريطاني الفرنسي بإقامة وطن قومي لليهود

(١) ج.م.ن. جفريز، فلسطين إليكم الحقيقة (مترجم) ج١/ ٣٣٧.

في فلسطين لكي يستطيع اليهود أن يعودوا إلى البلاد التي كانوا منتشرين فيها قبل مجيئهم إلى فلسطين.

وقد علق بريطاني كان يعمل صحفياً مع القوات البريطانية التي دخلت فلسطين سنة ١٩١٧م بعد سقوط الدولة العثمانية وهزيمتها في الحرب علق ما فعلته بريطانيا بحق شعب فلسطين وعلى الوعد المشؤوم الذي أعطته للصهاينة لمساعدتهم في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، قال جفريز: «إنه في الوقت الذي كان العرب يتحالفون مع بريطانيا ضد تركيا، كان العرب في بلاد الشام يعلقون على أعواد المشانق من قبل تركيا بشكل مروع ويلاقون التنكيل والنفي والملاحقة لكل من تقع عليه شبهة بعلاقته مع بريطانيا، كانت بريطانيا في هذه الأثناء تتآمر هي الأخرى بالخفاء على العرب لتمزيقهم، وتتآمر مع اليهود لإعطائهم فلسطين بدلاً من أن تفي بريطانيا بعهودها التي قطعتها للعرب بالاستقلال»[١].

وقد استخدم هذا الصحفي البريطاني عبارات قاسية بحق بريطانيا فقال: «بأن هذا العمل الذي ارتكبته -بريطانيا- بحق فلسطين بأنه تدنيس لشرف بريطانيا العظمى»[٢].

وفي مكان آخر من كتابه يقول: «وأن عملها كان عملاً خسيساً»[٣]، كما وصف عملها بحق فلسطين بالخيانة[٤] ووصف اتصالات بريطانيا مع الدول الأخرى لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بأنه عمل مخز[٥]. ويقول: إنه في

(١) ج.م.ن. جفريز، فلسطين إليكم الحقيقة (مترجم) ج١/ ٢٤١-٢٤٨.
(٢) ج.م.ن. جفريز، فلسطين إليكم الحقيقة ج١/ ٢٢٦.
(٣) ج.م.ن. جفريز، فلسطين إليكم الحقيقة ج١/ ٢٢٠.
(٤) نفسه ج١/ ٢٣٠.
(٥) نفسه ج١/ ٢٣٢.

الوقت الذي كان فيه العرب يوفون بعهودهم مع بريطانيا كان سايكس وبيكو المكلفين من بلديهما بريطانيا وفرنسا قد انتهيا من إبرام إتفاقية سايكس بيكو الغادرة بالعرب في أيار من عام ١٩١٦م[١].

ويقول عن اتفاق بريطانيا مع زعماء اليهود في العالم لإعطائهم فلسطين بأن ذلك أضخم وأرذل وأحط وأخس صفقة عقدت في زمن الحرب على الإطلاق[٢].

وقد وصف جفريز وعد بلفور لليهود بأنه مخالف للقانون ومخادع في صياغته، لهو أخزى وأقبح وثيقة وضعت عليها حكومة بريطانيا توقيعها منذ أن كان التاريخ وكُنَّا[٣].

وقد وصف جفريز بريطانيا عندما أعطت اليهود وعدها المشؤوم وصفها بأنها كانت ترضخ لإملاءات اليهود[٤].

وعندما بدأت نتائج الحرب العالمية الأولى تظهر بالأفق لصالح دول الحلفاء، وخسرت تركيا مواقعها في بلاد الشام، وحلت محلها الجيوش الفرنسية والبريطانية، ودخل الجيش البريطاني فلسطين سنة ١٩١٧م بدأ عهد جديد لهذه البلاد جعلت فيه بريطانيا نفسها وصية على شعب فلسطين، وأصبحت فلسطين مباشرة تحت حكم بريطانيا فيما سمى بالانتداب البريطاني.

---

(١) المصدر نفسه ج١/ ٢٥٥.
(٢) المصدر نفسه ج١/ ٣٨٦.
(٣) المصدر نفسه ج١/ ٣٩٥.
(٤) المصدر نفسه ج١/ ٣٤٦.

بدأت بريطانيا تنفيذ سياستها ووعودها لليهود لمنحهم فلسطين وتحويلها إلى وطن قومي لهم فأعدت القوانين المناسبة لتنفيذ ذلك، وبدأت بالإشراف على تهجير اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين ومنحهم الجنسية الفلسطينية وتحويل ملكية الأرض لهم وإعداد المستعمرات لإقامتهم وتدريبهم وتسليحهم وتشكيل فرق عسكرية لهم ليحلوا محل الجيوش البريطانية بشكل تدريجي، وليكونوا قادرين على الإمساك بزمام الأمور على مراحل.

ومقابل ذلك عملت بريطانيا على تجويع أهل فلسطين والملاحقة لهم ومطاردتهم والتنكيل بهم وتعذيبهم وسجنهم ومصادرة الأرض والأموال والإعدامات لإرهابهم وإجبارهم على الرحيل منها، وقد امتدت هذه السياسة في المدة ما بين ١٩١٧-١٩٤٨م. وفي سنة ١٩٤٨م أعلنت بريطانيا نهاية عهد انتدابها على فلسطين وانسحبت جيوشها من البلاد بعد أن سلمتها بشكل تدريجي إلى اليهود، والذين أعلنوا عن قيام دولة إسرائيل على أكثر من نصف فلسطين، وضمت مصر إليها جزءاً قريباً من حدودها يطلق عليه قطاع غزة لا تزيد مساحته عن ٤٠٠كم٢ (١٠كم عرض×٤٠كم طول) وانضم جزء آخر من فلسطين يعرف بالضفة الغربية إلى الأردن وشكل معه ما يعرف بالمملكة الأردنية الهاشمية، وقد استمرت الضفة الغربية من فلسطين مع الأردن وقطاع غزة مع مصر حتى سنة ١٩٦٧م حين وقع العدوان الإسرائيلي، فأصبحت فلسطين كلها تحت الاحتلال الإسرائيلي ولا تزال حتى وقتنا الحاضر.

بناء المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة والأماكن المقدسة الأخرى الملحقة بهما بعد الفتح الإسلامي:

٢،١: بناء المسجدالأقصى ومسجد قبة الصخرة:

عندما دخل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيت المقدس سنة ١٥هـ أرشده القائد الروماني صفرونيوس الذي سلمه المدينة إلى مكان الصخرة الشريفة التي عرج منها الرسول ﷺ، وكان المسجد الأقصى بجوارها، ولم يكن عليها أي بناء، فأمر الخليفة بتنظيف هاذين المكانين وبناء مسجدين عليهما هما مسجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، وكان البناء أولاً من الخشب[١].

يقول ابن خلدون: «أمر ببنائه -يقصد المسجد الأقصى- عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاء إلى بيت المقدس، وسأل عن الصخرة فأري مكانها فبنى عليها مسجداً على طريق البداوة وعظم من شأنه»[٢].

ثم بنى عبدالملك بن مروان في خلافته (٦٥-٨٦هـ) مسجد قبة الصخرة على الشكل الموجود حالياً، وبنى ابنه الوليد في خلافته (٨٦-٩٦هـ) المسجد الأقصى، وهما المسجدان اللذان لا يزالان قائمين حتى وقتنا الحاضر.

وقد بُني المسجد الأقصى في الحرم القدسي الشريف على سفح جبل بشكل طولي من الجنوب إلى الشمال، له عدد من النوافذ تطل على الجنوب، وفي هذه

(١) شفيق محمود، تاريخ القدس/ ٩٩-١٠٠.
(٢) ابن خلدون، المقدمة/ ٣٥٥.

الواجهة منبر المسجد من عهد صلاح الدين الأيوبي ومحرابه الجميل المزخرف بالفسيفساء[1].

وأما واجهة الشمال ففيها أبواب المسجد الأقصى وهي سبعة أبواب ضخمة مطلة على ساحة تفصل المسجد الأقصى عن مسجد قبة الصخرة المجاور الذي يرتفع فوق تلة عن المسجد الأقصى جهة الشمال والمسافة بين المسجدين حوالي ٢٠٠م، وللمسجد الأقصى أربعة مآذن وقبة خضراء، وبداخله خمسة وأربعون عموداً من الرخام، يستند عليها سقف المسجد الملون من الداخل ومزخرف بزخارف جميلة[2].

وأما مسجد قبة الصخرة فقد بني على صخرة المعراج التي عرج عنها الرسول ﷺ، إلى السماء بعدما أسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس في السنة العاشرة من البعثة النبوية[3]، وقد حدد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكان الصخرة عند مجيئه إلى بيت المقدس فاتحاً لها سنة ١٥هـ، وأمر ببناء المسجد فوق الصخرة ثم أقيم المسجد الحالي مكانه في خلافة عبدالملك بن مروان، وتم البناء كما قيل سنة ٧٠هـ أو سنة ٧٢هـ[4]، له ثمانية أضلاع، مثمن

(١) أبو الفداء. المختصر في تاريخ البشر/ ٢٢٧
مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج١/ ٢٤٢.
عارف العارف. تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى/ ١٥٠.
نبيه عاقل. خلافة بني أمية/ ٣٠١.
(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ١٩٦.
مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل ج٢/ ١١-١٢.
(٣) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ج١/ ٥٦٤ وما بعدها.
(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان/ ١٥٩.
ابن خلدون، المقدمة/ ٣٥٥.
زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٣٩.

الشكل (حسب شكل الصخرة تقريباً التي بني عليها)، وفوق المسجد من أعلى قبة صفراء مرفوعة على ستة عشر عموداً بين كل عمودين أسطوانة[1] وأما الصخرة فهي في وسط المسجد حولها سور من شبك ارتفاعه ٥ , ١م لا يفسح المجال لصعود الناس فوقها، ويصلي الناس حولها من جميع الجهات، ومساحتها حوالي ١٣م×١٩م وتحتها مغارة بحجم ٤م×٤م تقريباً، دائرية الشكل يمكن النزول إليها من أحد أطراف الصخرة بواسطة درج إلى أسفل[2].

وقبة المسجد مزينة من الخارج والداخل بالفسيفساء الملون ومحاطة بآيات من القرآن الكريم، وكذلك أضلاع المسجد الثمانية محاطة بآيات من القرآن الكريم في أشرطة ملونه متوازية بشكل فني جميل جداً، وله أربعة أبواب في كل جهة باب واحد من الشمال والجنوب والشرق والغرب، والباب الجنوبي منها يطل من مكان مرتفع على المسجد الأقصى الذي يقع في جهة الجنوب من مسجد قبة الصخرة.

وللمسجد ست عشرة نافذة، مغطاة من الخارج بطبقة من الرصاص ومن الداخل بطبقة من الجص، طول ضلعه المثمن نحو عشرون متراً ونصف وارتفاعه نحو تسعة أمتار ونصف[3].

٣- المسجد المرواني:

يقع بمحاذاة المسجد الأقصى من الجهة الشرقية وهو ما كان يطلق عليه إسطبل سليمان بن عبدالملك بناه بجانب المسجد الأقصى لإيواء الدواب التي يأتي

(١) عارف العارف. تاريخ قبة الصخرة/ ١٢٣.
(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٥/ ١٩٦.
مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل ج٢/ ١٧.
(٣) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٣٧.

عليها زوار المسجد الأقصى من كافة الأقطار، إلاّ أن هذا الإسطبل أصبح لا لزوم له بسبب استخدام الناقلات المختلفة بدلاً من الدواب فأغلقت أبوابه، وجرى تعديلات في البناء والتبليط حول المسجد الأقصى فأصبح الإسطبل تحت السطح المجاور للمسجد الأقصى ومساحة مسطحه من أعلى ٦٠٠٠م٢، بداخله ١١٠ أعمدة، ويمكن النزول إليه حالياً بواسطة درج يؤدي إلى الطريق الرئيسي له وهو ممر طويل بعرض ٤م فيه أعمدة مترابطه بواسطة أقواس بشكل حذوة الفرس، وفي نهاية الممر (المدخل الرئيسي) مداخل تؤدي إلى صالات متصله ببعضها البعض عن طريق أبواب، وهذه الصالات بعضها أكبر من بعض وغير متساوية الأحجام، لها نوافذ تهوية من أعلى، وفي طرف الصالة الكبرى بئر ماء يسقي الدواب، وقد ظل هذا الإسطبل مغلقاً حتى سنة ١٩٩٨م وعندما اكتشف الأهالي والحراس حفريات يهودية من ناحيته الجنوبية لتطويق المسجد الأقصى بحفريات تحت الأرض من ناحيته الشرقية، فقام الأهالي بفتح أبواب الأسطبل وأجروا عليه تحسينات وترميمات وقاموا بتبليطه وفرشه وحولوه إلى مسجد يطلق عليه الآن المسجد المرواني.

٤- حائط البراق

وهو مجاور للمسجد الأقصى من ناحية الغرب، مكان مقدس عند المسلمين لصلته برحلة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ، إذ ربط الرسول ﷺ فيه البراق التي ركبها الرسول ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وعاد عليها إلى مكة أثناء عودته بعد معراجه ﷺ إلى السماء.

وهذ الحائط محل نزاع بين اليهود والمسلمين، إذ هو نفسه المكان الذي يقدسه اليهود، فهم يسمونه حائط المبكى؛ لأنه في نظرهم الحائط الذي كان

مجاوراً لمعبدهم القديم الذي يطلقون عليه الهيكل الذي دمره الرومان التدمير الأخير قبل الفتح الإسلامي.

وهم يرتادون هذا الحائط باستمرار وخاصة يوم السبت يبكون فيه حتى يعيدوا بناء الهيكل من جديد، وبجواره الآن ممر طويل وحفريات تحت المسجد الأقصى تمهيداً لهدمه وإعادة بناء هيكلهم المزعوم مكان المسجد الأقصى، لا قدَّر الله.

مكانة بيت المقدس عند المسلمين:

لبيت المقدس (مدينة القدس نفسها) مكانة عظيمة عند المسلمين للاعتبارات التالية:

١- لوجود المسجد الأقصى بها، وهو ثاني مسجد بني بعد المسجد الحرام الذي بمكة المكرمة «ففي رواية عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت الرسول ﷺ، عن أول مسجد بني في الأرض، قال: «المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: **المسجد الأقصى وبينهما أربعون سنة**»[١].

٢- صلى به عدد من الأنبياء السابقين الذين جاؤوا بعقيدة التوحيد على دين الإسلام ومن هؤلاء الانبياء إبراهيم وعيسى وإسحق ويعقوب وسليمان وداود ممن هم على ملة إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿**مَا كانَ إبراهِيمُ يهودياً ولا نَصْرانِياً، ولكنْ كانَ حنيفاً مسْلِماً وما كان من المشرِكين**﴾[٢].

---

(١) رواه البخاري ومسلم، أنظر ابن خلكان، وفيات الأعيان ج١/ ٤٥٥، ابن كثير، البداية والنهاية ج١١/ ٢٤، ابن خلدون، المقدمة/ ٣٥٦.

(٢) سورة آل عمران الآية/ ٦٧.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

وقد دعا إبراهيم عليه السلام إلى الدين الحنيف دعوة الإسلام ولم يدعو إلى ديانة أخرى فقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

٣- إن الله يورث الأرض لمن يشاء من عباده، وقد أورث الله بيت المقدس وما حوله للمسلمين بعد رحلة الإسراء والمعراج، وقد بشر الرسول ﷺ بعدها بفتح بيت المقدس، وأنها ستكون للمسلمين، كما جاء في حديث شداد بن أوس الأنصاري ابن أخي حسان بن ثابت «أن الرسول ﷺ، قال له: يا شداد، ما سبب قلقك؟ فقال: يارسولَ الله، ضاقت بي الأرض. فقال: **ألا إن بيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله تعالى**»[3]، وقد تحقق لشداد ما أخبره به الرسول ﷺ، وإن الأمة الخيرة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن لمنكر هي التي يورثها الله الأرض. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ

(١) سورة البقرة/ ١٣٥-١٣٦.

(٢) سورة البقرة/ ١٣٠-١٣٣.

(٣) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل/ ٢٦٣.

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ...﴾[4]

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

٤- أرض فلسطين هي أرض المحشر والمنشر كما أخبر الرسول ﷺ، فقد ورد عن ميمونة رضي الله عنها أنها قالت: قلت: يارسولَ الله. افتنا في بيت المقدس؟ قال: أرض المنشر والمحشر، آتوه فصلوا فيه، فإن صلاةً فيه كألف صلاة. قالت: أرأيتَ إن لم نطق نتحمل إليه ونأتيه، قال: فليهد إليه زيتاً يسرج في قناديله، فإنه من يهد إليه كان كمن صلى فيه»[6].

---

(١) سورة آل عمران/ ١١٠.
(٢) سورة آل عمران/ ١٣٩.
(٣) سورة البقرة/ ١٤٣.
(٤) سورة النور/ ٥٥.
(٥) سورة آل عمران/ ٢٦.
(٦) أخرجه القزويني في باب إسراج بيت المقدس.
انظر: مسند الإمام أحمد ج٤/ ٤٦٦-٤٧٧.
وخلاصة تذهيب الكمال/ ٤٩٦.
ابن الجوزي، تاريخ بيت المقدس/ ٣٩.

٥- أهل بيت المقدس وأكناف بيت المقدس مرابطون في سبيل الله مجاهدون إلى قيام الساعة، فقد ثبت عن الرسول ﷺ. أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله، وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس**»(١).

٦- بيت المقدس مسرى النبي ﷺ، ومعراجه كما جاء في القرآن الكريم ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(٢).

وقد ورد في السيرة النبوية أن الرسول ﷺ حدث أصحابه عن رحلة الإسراء والمعراج وأنه صلى في الأنبياء في المسجد الأقصى في بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج(٣).

٧- إن الرحلة إلى بيت المقدس مشروعة في الإسلام بقصد زيارة المسجد الأقصى، وتأتي مشروعية زيارته بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف حيث قال الرسول ﷺ: «**لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا ومسجد الحرام ومسجد الأقصى**»(٤).

٨- إن بيت المقدس أولى القبلتين، فكان الرسول ﷺ، وأصحابه بمكة قبل الهجرة إلى المدينة يصلون تجاه بيت المقدس طيلة الدعوة إلى الإسلام بمكة ومدنها

---

(١) مجمع الزوائد ج٧/ ٢٩١.
(٢) سورة الإسراء/ ١.
(٣) ابن الجوزي، تاريخ بيت المقدس/ ٤٠.
(٤) صحيح مسلم م٤/ ١٢٦.

ثلاث عشرة سنة، واستمر الرسول ﷺ وأصحابه يصلون تجاهها بعد الهجرة إلى المدينة لمدة ثمانية عشر شهراً، ثم تحول في صلاته تجاه الكعبة بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وهذا يدل على تعلق قلب الرسول ﷺ ببيت المقدس والتطلع إليها دون غيرها من البلدان، فحقق الله له هذه الرغبة بزيارتها في رحلة الإسراء والمعراج.

٩- فضل الإحرام من بيت المقدس: فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ من أَهَلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة، وفي رواية عنها أنها قالت قال رسول الله ﷺ: من أحرم من بيت المقدس بحج أو عمرة خرج من ذنوبة كيوم ولدته أمه، وفي رواية: غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[2].

---

(١) سورة البقرة/ ١٤٢-١٤٤.

(٢) رواه أبو داود السجستاني صاحب كتاب السنن.
انظر: ابن الجوزي. تاريخ القدس/ ٤٩.
ابن خلكان. وفيات الأعيان ج١/ ٢١٤.
اليافعي. مرآة الجنان ج٢/ ١٨٩.
ابن كثير. البداية والنهاية ج١١/ ٥٤.

١٠- فضل الصدقة والصيام ببيت المقدس[١]، وقد أفاض كثير من العلماء بذلك[٢].

١١- بسبب فضل الدعاء وفضل الوفاة فيها وبسبب من سكنها من الصحابة ومات فيها بعد الفتح الإسلامي، ومنهم شداد بن أوس الأنصاري وترك فيها ذريته فظلت تسكن فيها[٣]. وعبادة بن الصامت دفن فيها وترك له عقب فيها، وسعود بن أوس بن زيد الأنصاري كذلك[٤].

١٢- بسبب من زار القدس من الصحابة بعد الفتح الإسلامي، ومنهم صفية أم المؤمنين، وبلال بن رباح، وعياض بن غنم، وأبو الدرداء، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو ذر الغفاري، وكعب الأحبار، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن سلام، وسعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وعبدالله بن عباس، وعوف بن مالك الأشجعي، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبي سفيان[٥].

١٣- بسبب من نزلها من أعيان المسلمين مثل: سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، والإمام الشافعي، وحجة الاسلام الغزالي، وابن القيسراني[٦].

---

(١) ابن الجوزي. تاريخ القدس/ ٥١.
(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤.
ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٧٤.
(٣) ابن سعيد، الطبقات الكبرى ج٧/ ٤٠١.
ابن كثير، البداية والنهاية ج٨/ ٨٨.
(٤) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل ج١/ ٢٦٠-٢٦٧.
(٥) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل ج١/ ٢٦٠-٢٦٧.
(٦) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل ج١/ ٢٨٥.

وكان الخلفاء الأمويون يُبَايَعون على الخلافة في بيت المقدس، كما كانوا يكررون زيارتها بعد ذلك تيمناً بها وتقديراً لها[١].

د- دمشـــق:

وهي في الشأم بالهمزة فوق الألف، ويقال: الشام دون همزة، جمع شامة، وسُميت بذلك لكثرة مدنها وقراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات لحسنهاوجمالها، وقال: بعضهم إنها سميت بالشام نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام، فأبدلت السين إلى شين، وقيل: بل سميت بالشام لأنها شامة القبلة أو لأن قوماً من كنعان بن حام خرجوا إلى الشمال فسميت بالشام لذلك[٢].

وقد ورد عن الرسول ﷺ قوله فيها: **الشام صفوة الله من بلاده وإليه يجتبي صفوته من عباده، يا أهل اليمن عليكم بالشام فإن صفوة الله من الأرض الشام، ألاَ مَنْ أبى فإن الله قد تكفل لي بالشام»**[٣].

وحدودها من الفرات شمالاً إلى العريش المتاخم للديار المصرية جنوباً وأما عرضها ،فمن جبل طيء شرقاً إلى بحر الروم غرباً[٤]. وأما المسافات بين دمشق وما يجاورها من البلدان فمنها إلى بعلبك يومان، وإلى طرابلس ثلاثة وإلى بيروت ثلاثة، وإلى صيدا ثلاثة، وإلى حوران يومان، وإلى حمص خمسة، وإلى حماة ستة، وإلى القدس ستة، وإلى مصر ثمانية عشر يوماً، وإلى غزة ثمانية أيام، وإلى عكا أربعة أيام، وإلى صور أربعة، وإلى حلب عشرة[٥].

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٢/ ٥.
(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٣/ ٣٥٤.
(٣) المصدر نفسه ج٣/ ٣٥٥.
(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٣/ ٣٥٤.
(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢/ ٥٣٤.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت دمشق من أهم أجناد بلاد الشام الخمسة: «جَنْد قنسرين، جَنْد حلب، جند دمشق، جند الأردن، جند فلسطين».

ودمشق قصبة بلاد الشام، بنيت قبل آلاف السنين، كثيرة المياه والبساتين، ويقع خلفها من جهة الشمال جبل قاسيون ودمشق أمامه على سهل منبسط، تعاقبت عليها حضارات قديمة، الآراميون واليونان والرومان حتى فتحها المسلمون سنة ١٤هـ فأعزها الله بالإسلام، وأصبحت قلعة من قلاع الإسلام، واتخذها الأمويون عاصمة لهم فشهدت النقلة الحضارية الأولى للدولة الإسلامية، وانطلقت منها إشعاعات الفكر والثقافة والفنون بعدما استوعب المسلمون حضارات الأمم الماضية في جميع الميادين، وشهدت دمشق الحركة العلمية في الترجمة للعلوم القديمة، مما يثبت أن الإسلام جاء ليبعث الحياة من جديد، وما جاء ليهدم حضارات الأمم السابقة، فازدهرت الحياة في جميع ميادينها.

ومن أشهر معالم دمشق، المسجد الأموي الذي اختطه بوسط دمشق أبو عبيدة عامر بن الجراح سنة١٤هـ/ ٦٣٤م.

وجدده على نطاق أوسع وأجمل الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك سنة ٨٨هـ، وله أربعة أبواب: باب البرد من الغرب وباب جيرون من الشرق، وباب الزيادة من الجنوب، وباب الفراديس من الشمال، وله ثلاث منائر وقبة خضراء ضخمة وساحة في وسطه، وفيه عدد كبير من الأعمدة الرخامية، فكان في عصره أعجوبة في البناء والفن والزخرفة لكثرة ما أنفق الوليد بن عبدالملك في بنائه من أموال طائلة، لدرجة أن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز أراد ان ينزع ما فيه من فسيفساء ورخام وسلاسل ليردها إلى بيت المال، لولا أنه جاء عشرة

رجال من الروم فاستأذنوا دخول المسجد، فدخلوه فذهلوا مما رأوا فقال رئيسهم: «إنا كنا معاشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها» فلما علم عمر بن عبدالعزيز بذلك قال: «إني أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفار» وترك ما همَّ به[1].

ودفن بدمشق من الصحابة والتابعين وأهل الخير والصلاح منهم: عاتكة أخت عمر بن الخطاب، وصهيب الرومي، وكعب الأحبار، وثلاثة من أزواج النبي ﷺ، وفضة جارية فاطمة بنت الرسول ﷺ، وأبو الدرداء وأم الدرداء، وعلي بن عبدالله بن العباس وسلمان بن علي بن عبدالله بن العباس، وزوجته أم الحسن بنت علي بن أبي طالب وخديجة بنت زين العابدين، وسكينة بنت الحسين، وعبدالله بن مسعود، وأبيَّ بن كعب، وأقام فيها كثير من العلماء والصالحين[2].

هـ- قرطبـــــة.

من أقدم المدن في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس بعد الفتح الإسلامي).

وهي بلفظ كردوبا، تأسست قبل نبوة عيسى عليه السلام بنحو ثمان وثلاثين سنة. واتخذها المسلمون قاعدة لهم بعد الفتح الإسلامي للأندلس، ونالت عناية كبيرة من أمراء الأندلس بتحسين أوضاعها ببناء القناطر والجسور والمساجد والقصور حتى أصبحت من أجمل بلاد الدنيا[3].

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢/ ٥٣٠-٥٣٣.
(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢/ ٥٣٣-٥٣٤.
(٣) المقري، نفح الطيب ج١/ ٢٦، ١٤٥.

وعندما انهارت الخلافة الأموية في الشرق الإسلامي وحلت محلها الخلافة العباسية، استطاع عبدالرحمن الداخل الأموي إقامة دولة أموية مستقلة عن العباسيين في الأندلس، فاتخذ من قرطبة عاصمة له، فتحولت قرطبة إلى مركز حضاري كبير في الفنون الإسلامية المختلفة في البناء والعمران والتأليف والترجمة، واتسعت أرباضها كثيراً، ونالت المساجد بمآذنها العالية وقبابها الفخمة اهتماماً كبيراً، حتى أصبحت قرطبة أعجوبة الدهر كما وصفها المؤرخون، فقد بلغت مساجدها ١٦٠٠ مسجد، وحماماتها ٦٠٠، ودورها مائتا ألف دار، وثمانون ألف قصر، وفي ضواحيها ثلاثة آلاف قرية، وسكانها مليوني نسمة وامتلأت بالمكتبات وشوارعها مضيئة ومبلطة[١].

وقد تحدث المؤرخون في وصف آثارها وأنهارها وجنائنها ونواعيرها ومتنزهاتها واتساعها ومساجدها وأسواقها وحماماتها وطيب هوائها وكثرة العيون فيها ومكتباتها وكثرة المؤلفات والمخطوطات فيها[٢].

وفي خلافة عبدالرحمن الناصر بنى حولها سوراً سنة ٣٠١هـ، وجعل له خمسة أبواب هي: باب الوادي (باب القنطرة) وباب الحديد (باب طليطلة) وباب طلبيرة، وباب الجوز، وباب العطارين[٣].

وقد ازدهرت العلوم الإسلامية بقرطبة فامتلأت مكتباتها بالمخطوطات، فقدم إليها طلاب العلم من أوربا لكي ينهلوا من علومها ويترجموها إلى لغاتهم.

(١) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية ج١/ ٢٥٦.
(٢) المقري، نفح الطيب ج٢/ ٨-١٢.
(٣) المقري، نفح الطيب ج٢/ ١٢-١٣.

وعندما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس وانتهى عهدها سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م أعلن الولاة والمتنفذون في الإدارة والجيش الانفصال عن بعضهم البعض فيما سمي بدول الطوائف، فظهرت دولة بني جهور بقرطبة، ودولة بني الافطس ببَطَلْيُوس غرب الأندلس، ودولة بني عباد بإشبيلية، ودولة بني ذي النون بطليطلة ودول أخرى للصقالبة شرق الأندلس، وأخرى للعامريين وقبائل البربر في مناطق أخرى متفرقة، وأصبح بأس حكام هذه البلاد بينهم، ثم جاء المرابطون من المغرب لإعادة الصف والوحدة بين المسلمين مرة ثانية هناك، فقضوا على هؤلاء الحكام الضعاف، إلا أن حكام النصارى شمال الأندلس استغلوا فرصة ضعف المسلمين في الأندلس فاجتاحوا البلاد وسقطت المدن الواحدة تلو الأخرى حتى انتهى عهد المسلمين في الأندلس نهائياً سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م.

٢- مدن إسلامية بنيت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أ- البصرة:

وتعني في اللغة الأرض الغليظة التي تقطع حوافر الدواب، وقيل: إنها سميت بذلك لأنها أرض مليئة بالحصى البيضاء، وقيل: إن أصل التسمية فارسي وعربت عن بسرواة، وتعني الطرق الكثيرة المتشعبة، وقد جاء في معجم البلدان أن المسلمين حين وافوا المكان الذي بنيت فيه البصرة فيما بعد نظروا إليها من بعيد فأبصروا الحصى فقالوا: إن هذه أرض بصرة، يعنون أرضاً حصباء[1].

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١/ ٥١٠.

ويبدو أن تسمية البصرة جائزة عليها لهذه المعاني المختلفة فطرقها متشعبه تؤدي إلى عدة جهات بسبب موقعها التجاري والجغرافي والعسكري، فهي في الجهة الغربية من ملتقى نهري دجلة والفرات، وأرضها رخوة كثيرة الحصى والمستنقعات، وكان يطلق عليها قبل الإسلام الخُريبة وفرج الهند؛ لأن السفن كانت تنطلق من هناك باتجاه الهند عن طريق الخليج العربي، كما كان يطلق عليها الأبلّة، فلما جاء خالد بن الوليد إلى العراق قادماً من اليمامة بعد القضاء على المرتدين بأمر من الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة ١٢ هـ دخل العراق من جنوبيها من المكان الذي يطلق عليه الأبلة (فرج الهند) الذي أصبح فيما بعد البصرة، فهزم خالد بن الوليد الفرس فيها في أول معركة يقال لها ذات السلاسل.

وقد لاحظ خالد بن الوليد أهمية هذا الموقع العسكري باعتباره منفذاً لإمدادات الفرس، فيمكنهم أن يأتوا إليه ويقوموا بعملية تطويق والتفاف من خلف المسلمين أثناء تقدمهم إلى شمال العراق، فخلّف خالد بن الوليد سويد بن قطبة الذهلي في عدد من المسلمين على الخُريبة على سبيل الحماية من الخلف والمراقبة لإمدادات الفرس، وواصل خالد بن الوليد تقدمه شمالاً يهزم جموع الفرس في عدة مواقع حتى وصل إلى نواحي الحيرة على حافة نهر الفرات من الناحية الغربية، وأقام معاهدات مع قبائل العرب والفلاحين الذين كانوا يسكنون على حافتي نهر الفرات تحت حكم الفرس.

ثم أمر الخليفة أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد أن يتحول من العراق إلى الشام لمساعدة قادة فتوح الشام على الروم، فغادرها وترك في العراق نائباً عنه لمحاربة الفرس المثنى بن حارثة الشيباني[1].

(١) ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٣٨.

ثم توفى الخليفة أبو بكر رضي الله عنه في جمادى الآخرة سنة ١٣هـ وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان سويد بن قطبة الذهلي لا يزال مقيماً في المكان الذي تركه فيه خالد بن الوليد، فأرسل إلى الخليفة عمر يستمده فأمده بشريح بن عامر وكتب إليه يأمره بالمقام والحذر من الفرس.

وكان الخليفة عمر كثير الأسئلة عن أخبار المسلمين وأماكن إقامتهم بإزاء العدو، وقد قدم إليه رجل من العراق يُقال له ثابت السدوسي فقال: «يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر وفيه مسالح للعجم يقال له الخُريبة، ويسمى أيضاً البصيرة بينه وبين دجلة أربعة فراسخ، له خليج بحري فيه الماء إلى أجمة قصب فأعجب ذلك عمر»[1].

ثم وجه الخليفة عمر قائداً جديداً إلى الأبلة وهو عتبة بن غزوان المازني وأوصاه حين وجهه قائلاً له: «ياعتبة، إني قد استعملتك على أرض الهند (البصرة فيما بعد) وهي حومة من حومة العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك عليها، وقد كتبت إلى العلاء بن الحضري أن يمدك بعرفجة بن هرثمة وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو، فإذا قدم عليك فاستشره وقربه وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه ومن أبى فالجزية عن صغار وذلة وإلا فالسيف في غير هوادة، واتق الله فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر مما يفسد عليك إخوتك، وقد صحبتَ رسول الله ﷺ فعززتَ به بعد الذلة، وقويتَ به بعدَ الضعف حتى صرتَ أميراً مسلطاً وملكاً مطاعاً تقول فيسمع منك وتأمر فيطاع أمرك، فيا لها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتبطرك على من دونك، واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١/ ٥١١.

وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم أعيذك بالله ونفسي من ذلك. إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رفعت لهم الدنيا، فأرد الله ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين. انطلق أنت ومن معك حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا»[1].

وإذا تفحصنا هذه التوصيات من الخليفة عمر بن الخطاب لعامله عتبة بن غزوان حين وجهه إلى الأبلة -الخريبة- (البصرة فيما بعد) لوجدنا أخلاق القائد المسلم في التعامل مع العدو، وحرص الخليفة على أرواح الجند المسلمين وعدم المغامرة كثيراً في أرض العدو، مع ضرورة الحذر والاحتياط من مباغتات العدو، وأن تكون إقامة جند المسلمين في أقرب مكان من الجزيرة العربية ليتمكنوا من الانسحاب بسهولة إذا دعت الضرورة.

وقد نفذ عتبة بن غزوان تعليمات الخليفة عمر، فأقام في المكان الذي حدده له سنة ١٤هـ[2].

ثم جرت مراسلات بين الخليفة عمر وعتبة بن غزوان ليصف له المكان الذي أقام فيه، فأرسل عتبة إلى الخليفة يقول له: «إنه لا بد للمسلمين من منزل إذا شتى شتوا فيه، وإذا رجعوا من غزوهم لجؤوا إليه» فكتب إليه عمر «أن ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء، واكتب إليّ بصفته» فكتب إلى عمر «إني قد وجدت أرضاً كثيرة القضة[3] في طرف البر إلى الريف ودونها منافع فيها ماء وفيها قصباء»[4].

(١) ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٣٨.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٤٨-١٥١.
(٣) القضة، الأرض المشققه وفيها حصباء.
(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١/ ٥١٢.

فلما وصل هذا الكتاب إلى الخليفة قال: «هذه أراض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب».

وكانت هذه المواصفات هي التي يطلبها الخليفة لبناء المدينة فأمر عتبة بن غزوان الإقامة فيها. فبنى المسلمون فيها المسجد والدور من القصب، فكانوا يحزمونه إذا غزوا ثم يعيدون بناءَه إذا رجعوا من الغزو[1].

ثم زاد أهل البصرة وحدث حريق في بيوتها التي كانت من القصب فاستأذنوا الخليفة في البناء من الطين بدلاً من القصب، فأذن لهم وهو ما يطلق عليه تمصير البصرة، ثم سار عتبة بن غزوان إلى المدينة لمقابلة الخليفة، وخلَّف مكانه على البصرة المغيرة بن شعبة، ثم عاد إليها فمات في الطريق سنة ١٤هـ، وبقي المغيرة والياً على البصرة من قبل الخليفة عمر فبقي فيها سنتين ثم تولى مكانه أبو موسى الأشعري[2].

وبعد الفتوحات الواسعة التي قام بها سعد بن أبي وقاص في العراق وفارس بعد النصر الذي أحرزه في القادسية سنة ١٤هـ وسقوط المدائن عاصمة الفرس بيده وانتشار جيوش المسلمين في بلاد فارس وخراسان شرق نهر دجلة أصبح استقرار المسلمين في البصرة أمراً محتماً وآمناً، وأصبحت هذه المدينة قاعدة انطلاق للجيوش الإسلامية الفاتحة وملجأ آمناً تستريح فيه الجيوش الإسلامية وذويهم، كما أصبحت دار هجرة، وبدأت فيها دروس العلم من المساجد، ثم توسعت أحياؤها وانتظمت شوارعها على غرار مدينة الرسول ﷺ[3].

(١) البلاذري، فتوح البلدان/ ٣٤٢.
(٢) ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٤٠، ٣٦٨-٣٦٩.
(٣) الماوردي. الأحكام السلطانية/ ٢٠٣.

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه تولى الإمارة فيها عبدالله بن عامر فمنح الإقطاعات لساكنيها وأقام الأسواق وتوسعت كثيراً، كما تطورت الحياة فيها في بداية العصر الأموي حين تولى الإمارة فيها زياد بن أبيه فبنى المسجد ودار الإمارة من الجص والآجر، وشجع على تأسيس الأسواق[1]. وخلفه ابنه عبيدالله فوسع المسجد ودار الامارة وزاد سكانها عن ٢٠٠,٠٠٠نسمة، ثم اهتم فيها الحجاج بن يوسف الثقفي أثناء ولايته على العراق وزاد ساكنوها عن ثلاثمائة ألف[2].

وفي العصر العباسي أصبحت البصرة ملتقى الأدباء والعلماء والتجار الذين يفدون إليها من الهند والصين والحبشة لوقوعها على فم الخليج العربي وملتقى دجلة مع الفرات، كما انتشرت فيها المكتبات وكثرت المدارس والمجالس الأدبية، وازدهر فيها التأليف والترجمة، وأقيمت فيها الأسواق والحمامات، وتنافس فيها العلماء والأدباء والشعراء، واختلط فيها العرب بالعجم، فظهرت فيها حضارة عظيمة بفضل الرعاية التي أولاها لها الخلفاء والأمراء وقادة المسلمين.

ب- الكوفة:

عندما حقق القائد الفاتح سعد بن أبي وقاص انتصاراته العظيمة في العراق وفارس، وخاصة ذلك النصر الحاسم الذي أحرزه في معركة القادسية سيطر المسلمون على سواد العراق والمدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية، وواصل الفاتحون المسلمون مطاردة الفرس إلى شرق نهر دجلة، وسيطروا على معظم مدنهم وقراهم.

(١) عبدالجبار ناجي. البصرة مراحل تأسيسها وتطورها/ ٦١.
(٢) محمد عبدالستار عثمان. المدينة الإسلامية/ ٧٨.

وكان سعد بن أبي وقاص يرسل أخباره إلى الخليفة عمر أولاً بأول، ويتلقى منه التعليمات والتوجيهات، فجاءه كتاب الخليفة وهو في المدائن يقول له: «قف مكانك ولا تطلبوا غير ذلك» فكتب إليه سعد: «إنما هي سربة أدركناها والأرض بين أيدينا» فكتب إليه الخليفة: «قف ولا تتبعهم، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً».

كما أوصاه قائلاً له: «إن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما صلح للشاة والبعير فلا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف»[1].

وهذه هي سياسة الخليفة عمر مع الجيوش الإسلامية الفاتحة، سياسة تقوم على الحرص على أرواح المسلمين وعدم التسرع والمغامرة، وأن لا يتخذ قادة الفتح دار إقامة لهم وراء الأنهار أو البحار بعيداً عن إمدادات الجزيرة العربية، وهذا ما فعله عمرو بن العاص بمصر بوصية من الخليفة عمر حين اتخذ دار إقامة له شرق نهر النيل باتجاه الجزيرة العربية فيما سمي بالفسطاط.

كما سار على السياسة نفسها عتبة بن غزوان حين اتخذ من البصرة مقراً له في جنوب العراق عند شط العرب غرب نهر الفرات باتجاه الجزيرة العربية، وهو المكان الذي كان يطلق عليه قبل الفتح الإسلامي (الأبلة)، (الخُريبة)، (فرج الهند).

أخذ سعد بن أبي وقاص بوصية الخليفة عمر بأن يتخذ غير المدائن مقراً له، وأن يتحول عنها إلى أقرب مكان من الجزيرة العربية غرب نهر الفرات حتى لا يحول بينه وبين المدينة المنورة حائل مائي.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٤١ وما بعدها.
ياقوت. معجم البلدان ج٤/ ٥٥٨.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن سعد بن أبي وقاص بعث سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان ليرتادا له المكان المناسب فاختارا مكان الكوفة[١]، فبنى مدينته في هذا المكان وأطلق عليها الكوفة (لأنها مكوَّفة بشكل دائري)[٢].

وقد أنشأها سعد على غرار مدينة الرسول ﷺ على شكل دائري، وبنى في وسطها مسجد الكوفة وبجواره دار الإمارة وسوقاً يرتاده الناس. ثم قسمها إلى شوارع وطرقات وحولها الخطط لمختلف القبائل[٣].

وكتب سعد إلى الخليفة عمر بمنزله في الكوفة قائلاً له: إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً بحرياً ينبت الحلي والنصي، وخيرت المسلمين بالمدائن فمن أعجبه المقام بها تركته فيها كالمسلحة فبقي أقوام من الأفناء وأكثرهم بنو عبس»[٤].

وفي بادئ الأمر كان البناء من القصب، إذا غزا المسلمون قلعوه وربطوه في أحزمة، وإذا عادوا من الغزو أعادوا بناءه[٥].

فاحترقت الكوفة فأرسل سعد إلى الخليفة يخبره بذلك ويستشيره في البناء من الطين وتمصير المدينة فأرسل له بالموافقة حيث كتب له «افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة»[٦]. وقد ذكر الحموي أن المسافة بين الكوفة والمدينة المنورة تبلغ عشرين مرحلة[٧].

(١) ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٦٨.
(٢) الدينوري، الأخبار الطوال/ ٦٩ الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٩١.
ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٦٨.
(٣) اليعقوبي، فتوح البلدان/ ٩٥-٩٦.
ياقوت، معجم البلدان ج٤/ ٥٥٨.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٩١. ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٦٨.
(٥) ياقوت. معجم البلدان ج٤/ ٥٥٨.
(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٩١. ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٦٨.
(٧) ياقوت الحموي. معجم البلدان ج٤/ ٥٦٠.

وهكذا تأسست مدينة الكوفة بعد البصرة في العراق سنة ١٧هـ، وأصبح سعد ابن أبي وقاص أول أمير لها، ثم إن الخليفة عمر استدعى إليه سعد بن أبي وقاص فغادر الكوفة إلى مدينة الرسول ﷺ، سنة ٢١هـ بعد أن ترك فيها نائباً عنه عبدالله ابن عبدالله بن عتبان[١]. ثم أرسل الخليفة مكانه على ولاية الكوفة عمار بن ياسر وبصحبته عبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً لمساعدته، وأرسل الخليفة إلى أهل الكوفة يقول لهم: «أما بعد، فإنني بعثت إليكم عماراً أميراً وعبدالله معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، فاسمعوا لهما واقتدوا بهما، فإني آثرتكم بعبدالله عن نفسي أثرة»[٢].

وكان عبدالله بن مسعود المؤسس الأول لمدرسة الكوفة، فتخرج على يديه القراء والمحدثون والعلماء الأوائل في العراق ومنهم: علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، ومسروق بن الأجدع الهمداني، وعمر بن شرحبيل، والحارث بن قيس، وعمر بن ميمون، وأبو عبدالرحمن السلمي، وإبراهيم النخعي، وعامر بن شرحبيل الشعبي.

وفي خلافة علي رضي الله عنه اتخذ من الكوفة عاصمة له، فأقام فيها فاتسعت كثيراً وانطلقت منها جيوش الفتح الإسلامية إلى نواحي خراسان.

وتمتاز الكوفة عن غيرها من العواصم الإسلامية أن مؤسسها هو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنها مجتمع الصحابة الأوائل الفاتحين الذين وهبوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله والدفاع عن دين الله، ومن هؤلاء الصحابة الذين سكنوها سبعين من البدريين

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج/ ٢٦٨.
(٢) محمد حميد الله. الوثائق السياسية/ ٤١٦.

وثلاثمائة من أصحاب الشجرة الذين بايعوا رسول الله ﷺ في السنة السادسة هجرية فرضي الله عن بيعتهم. وهي الإمارة الأولى خارج الجزيرة العربية، وفيها نشأت مدارس النحو والتفسير والحديث، وتتلمذ فيها العلماء الأوائل، وظلت الكوفة منبع الحضارة الإسلامية الأولى في العراق، وفيها ترعرع العلم وتطورت الترجمة والتأليف في مختلف العلوم، وإليها ينسب الخط الكوفي المعروف، وظلت هكذا طيلة العصر الأموي إلى أن بنى الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور مدينة بغداد.

جـ ـ الفسطاط.

بعد أن أذن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن العاص بفتح مصر سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، سار إليها يفتح البلد تلو البلد حتى وصل إلى حصن بابليون على الطرف الشرقي من نهر النيل عند تفرعه إلى فرعين رشيد ودمياط، فحاصره حتى فتحه صلحاً مع المقوقس حاكم مصر سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م، ثم استعد لقطع نهر النيل والتوجه غرباً إلى الإسكندرية، فأمر بفسطاطه (بيت من الشعر) أن يقوض فإذا حمامة باضت فأمر به أن يظل مكانه حتى تطير فراخها، ووكل به من يحفظه، وسار إلى الإسكندرية، فأقام على محاصرتها ستة أشهر حتى فتحها الله على يديه، فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في اتخاذها عاصمة له. فسأل عمرُ الرسولَ هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب إلى عمرو بن العاص: «لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر».

وفي رواية: «إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، متى أردت أن أركب إليكم حتى أقدم عليكم، قدمت»[1]. فسأل

(١) المقريزي. خطط المقريزي ج١/ ٢٩٦.

عمرو بن العاص أصحابه أين ننزل؟ قالوا له: نرجع أيها الأمير إلى فسطاطك فنكون على ماء وصحراء. فرجعوا إليه، فأقام فيه وسكن الناس حوله، فكانت أول مدينة اختطها المسلمون بمصر بعد الفتح الإسلامي بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢١هـ/ ٦٤١م وأطلق عليها الفسطاط[١].

ويشير المقريزي في خططه إلى أن تخطيط المدينة كان في غالبيته على حسب قطاعات الجيش لتسهيل إدارة المدينة واستنفار الجيوش للجهاد. وأما بقية الخطط فكانت على غرار البصرة والكوفة على حسب القبائل، وإذا كانت القبائل قليلة العدد ضمت بعضها إلى بعض.

وقد بدأ عمرو بن العاص بناء المدينة بجامعه المعروف جامع عمرو بن العاص (الجامع العتيق) بطول خمسين ذراعاً وبعرض ثلاثين، وهو أهم معلم من معالم الفسطاط، وشارك في بنائه صحابة رسول الله ﷺ، وجلس فيه هؤلاء الصحابة يعلمون الناس أمور دينهم وتلاوة القرآن الكريم وحفظه، ومن هؤلاء الصحابة عبدالله بن عمرو بن العاص، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعلى أيديهم ترعرع العلم وتخرج الفقهاء والمحدثون حتى صار جامع عمرو بن العاص جامعة تخرج الدعاة والعلماء.

وأما طريقة بناء الفسطاط فكان على شوارع من الشمال إلى الجنوب لتكسب الشوارع ظلالاً طوال النهار وهبوب الرياح الشمالية على المباني لتساعد على استمرار برودتها أطول فترة ممكنة في فصل الصيف، وينطبق هذا الأسلوب في البناء على البلاد الحارة وعكس ذلك على البلاد الباردة، فتكون شوارعها من

(١) ابن عبدالحكم. فتوح مصر والمغرب/ ٦٩٧.
ياقوت، معجم البلدان، ج٤/ ٢٩٩، ج٦/ ٣٧٩-٣٨٠.

الشرق إلى الغرب لاكتساب أكبر قدر ممكن من الشمس طوال النهار، وتجنيب البيوت الرياح الشمالية والشمالية الغربية، ثم بدأت الفسطاط بالاتساع شرق نهر النيل وتغنى الشعراء بعظمة بنائها، وأقام فيها الأمراء طوال عصر الراشدين والأمويين والعباسيين قبل أن تتحول الفسطاط إلى مدينة القاهرة على أيدي الفاطميين سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م، وظل جامع عمرو بن العاص طوال هذه الفترة قبل مجيء الفاطميين مكاناً يؤمه طلاب العلم، فقد ألقى فيه الإمام الشافعي دروسه في أواخر العصر الأموي، وقد زادت حلقات الدروس فيه عن ثلاث وثلاثين حلقة، ووصل تلاميذها إلى الآلاف، كما توالت الزيادات في مساحة المسجد بسبب اتساع مدينة الفسطاط، ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان تولى أمر مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري فوسعه وبيضه وزخرفه سنة٥٣هـ[١].

وفي خلافة الوليد بن عبدالملك ولي مصر قرة بن شريك العبسي فزاد فيه ونمقه وحسنه سنة ٩٢هـ. وولي مصر في خلافة أبي العباس السفاح، صالح بن علي بن عبدالله بن العباس فزاد فيه سنة ١٣٣هـ، ثم ولي مصر في خلافة الرشيد موسى بن عيسى فزاد فيه سنة ١٧٥هـ، ثم قدم إلى مصر عبدالله بن طاهر بن الحسين من قبل الخليفة المأمون فزاد فيه سنة ٢١١هـ، وفي سنة ٢٥٨هـ زاد فيه أحمد بن محمد بن شجاع في خلافة المعتصم، ثم تلا ذلك في عهد الطولونيين والإخشيديين بناء المساجد والمدارس بمصر حتى اتسعت الفسطاط اتساعاً عظيماً[٢].

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٣/ ٣٠١.
(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج٣/ ٣٠٠ وما بعدها.

٣- مدن بنيت في العصر الأموي.

أ- القيروان:

مدينة بإفريقية (الجمهورية التونسية في الوقت الحاضر) مُصِّرت في خلافة معاوية بن أبي سفيان، بناها القائد الفاتح عقبة بن نافع بن مالك بن النضر بن كنانة الفهري، بعد أن ولاه الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أمر إفريقية سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م ليواصل الفتح الإسلامي في المغربين الأوسط والأقصى.

كان عقبة بن نافع الفهري قائداً من قادة فتوح المغرب منذ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فشارك عمرو بن العاص في حملته العسكريه على ليبيا بعد الفتح الإسلامي لمصر، ثم شارك عبدالله بن أبي سرح في حملاته بعد ذلك، وعندما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة بعد خلافة علي بن أبي طالب، أرسل عقبة بن نافع إلى إفريقية ليتولى قيادة الفتح هناك، وكان لعقبة بن نافع تجارب سابقة في فتوحات المغرب عندما كانت جيوش الفتح تصل إلى نواحي إفريقية ثم تعود إلى الفسطاط بمصر لعدم إمكانية استقرار الجيوش الإسلامية في المغرب بسبب المقاومة المتواصلة التي أبداها البربر في تلك الفترة، وكانت المسافة من الفسطاط بمصر إلى إفريقية (تونس حالياً) بعيدة جداً تبلغ ما يقرب من ثلاثة آلاف كيلو متر، وهي مسافة شاقة وطويلة على جيوش المسلمين في ذهابها وإيابها إلى تلك البلاد في محاولات متواصلة للفتح والاستقرار استغرقت ما يقرب من اثنتين وسبعين سنة في الفترة ما بين سنة ٢١هـ-٩٢هـ.

فلما جاء عقبة بن نافع إلى إفريقية سنة ٥٠ هـ ليواصل ما قام به القادة السابقون من أعمال الفتح قرر أن يبني للمسلمين داراً للهجرة وقاعدة انطلاق

للجيوش الإسلامية، ليريحها من عناء الذهاب إلى مصر والعودة إلى إفريقية، فقد قال لأصحابه: «إن أهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم، وإذا عضهم السيف أسلموا، وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عاداتهم ودينهم، ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأياً، وقد رأيت أن أبني هاهنا مدينة يسكنها المسلمون، فاستصوبوا رأيه، فجاؤوا إلى الموضع الذي بنى فيه مدينة القيروان واختاروه مكاناً لإقامة مدينتهم فيه»[1].

ويقع هذا المكان الذي اختاره عقبة بن نافع لبناء مدينة القيروان في وسط إفريقية (جمهورية تونس الآن) بين الجبال في أرض سهلية كثيرة العشب ومتوفرة المياه، بعيدة عن ساحل البحر الأبيض المتوسط، لكي يأمن غارات الروم من البحر، بعيداً عن تجمعات البربر الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد.

وكان أكثرهم يقيم في المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) والمغرب الأقصى (المغرب الحالية.) كما اختار الموقع بين الجبال والسهول لتوفر المياه والمراعي لدواب المسلمين.

وقد ذكر ابن عذارى أن عقبة خالف رأي أصحابه ببناء المدينة على ساحل البحر المتوسط لمواصلة الغزو البحري[2]، وكان يهمه المحافظة على أرواح المسلمين أولاً، حيث إنه اكتسب خبرة سابقة من مخاطر غارات الروم البحرية على المدن الساحلية، بعد معركة ذات الصواري البحرية سنة ٣١هـ عندما أغار الأسطول البحري الروماني على مدينة الإسكندرية، فتصدى لهم المسلمون بسفنهم البسيطة القليلة فهزموهم هزيمة منكرة[3].

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٣/ ٤٧٧ وما بعدها.
(٢) ابن عذارى. البيان المغرب في أخبار المغرب ج١/ ١٩.
(٣) عبدالعزيز سالم. المغرب الكبير-العصر الإسلامي/ ٢٠١.

وكان مع عقبة بن نافع في حملته بإفريقية ثمانية عشر صحابياً[1] وقبل أن يبدأ بالبناء نادى بأعلى صوته قائلاً : «أيتها الحشرات والوحوش والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارحلوا عنا فإنا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه» فخرجت جميعها تحمل أولادها في أسراب بعيداً عن المكان[2].

ثم بدأ الناس بالبناء سنة ٥٠هـ وانتهوا منه سنة٥٥هـ، فكان البناء على غرار المدن الإسلامية السابقة البصرة والكوفة والفسطاط ببناء دار الإمارة في الوسط وبجوارها المسجد الجامع والخطط من حوله على شكل دائري، يحيط بالمدينة سور من جميع الجهات لحمايتها من الغارات. وقد جاء في الروايات التاريخية أن عقبة ابن نافع دعا للقيروان بعدما أكمل بناءَها قائلاً: «يارب، املأها علماً وفقهاً واملأها بالمطيعين لك واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك»[3].

ثم واصل عقبه بن نافع الجهاد منطلقاً من القيروان باتجاه الغرب، إلا أن معاوية بن أبي سفيان عزله عن القيادة وأقام مكانه أبا المهاجر دينار، فعاد عقبة بن نافع إلى الشام، وأقام فيها حتى خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٠هـ فأعاد عقبة بن نافع على ما كان عليه في المغرب.

رجع عقبة إلى القيروان فوجدها قد خربت، فأصلح ما تهدم من السور، وعمَّر المدينة من جديد، وامتلأت بعساكر الفتح، ثم خرج منها فاتحاً باتجاه الغرب إلى المغرب الأوسط والأقصى يهزم جموع البربر حتى وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي، فعاد أدراجه ثانية من الطريق نفسه الذي جاء منه عائداً إلى القيروان،

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٣/ ٤٧٧.
(٢) ابن الأثير. الكامل ج٣/ ٤٦٦.
(٣) عبدالعزيز سالم. المغرب الكبير/ ٢٢١-٢٢٢.

إلا أن البربر كمنوا له في الطريق فمات شهيداً قبل أن يصل إلى القيروان في مكان يسمى تهوذة، ثم تواصلت أعمال الفتح بعده على يد قادة آخرين هم: زهير بن قيس البلوي، حسان بن النعمان الغساني، موسى بن نصير حتى اكتمل فتح المغرب سنة ٩٢هـ، فأصبحت القيروان قاعدة الإمارة فيها، وانتشر منها الإسلام بين صفوف البربر، كما انتشرت علوم المسلمين منها، ويطلق على أحد أنواع الخط العربي بالخط القيرواني نسبة إلى مدينة القيروان، وظلت القيروان معقلاً من معاقل المسلمين الكبرى بعد ذلك قرون طويلة.

ب- مدينة واسط

بناها الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان والياً على العراق في خلافة عبدالملك بن مروان وابنه الوليد بن عبدالملك، وامتدت ولايته على العراق ما بين ٧٤-٩٥هـ/ ٦٩٣-٧١٢م، وقد بناها بإذن من الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، فاختار الحجاج مكاناً لبناء مدينة واسط ما بين الكوفة والبصرة في مكان متوسط بينهما على حافة نهر الفرات من الجهة الغربية، فأطلق عليها واسط لذلك، وهي تبعد عن كل من المدينتين خمسين فرسخا[1] وقد بدأ البناء، سنة ٨٤هـ وانتهى منه سنة ٨٦هـ، في السنة التي توفي فيها الخليفة عبدالملك بن مروان[2].

وقد تحدث ياقوت الحموي عن مكان واسط قبل بنائها فقال: إنه كان قبل البناء منطقة حارة وأرضها سبخة قليلة العمران، فحفر الحجاج بها الأنهار وأكثر من البناء وزرع الزروع والأشجار ليلطف من جوها[3].

---

(١) ابن عبدالحق. مراصد الإطلاع ج٣/ ١٤١٩.

(٢) بحشل. تاريخ واسط/ ٣٨.
ياقوت، معجم البلدان، ج٥/ ٣٤٨.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج٥/ ٤٠١-٤٠٢.

ويعود السبب في بناء هذه المدينة لأن الحجاج بن يوسف الثقفي كره الإقامة في الكوفة أو البصرة، بعدما كثرت فتن الخوارج، فاختار مكاناً متوسطاً بين المدينتين ليتمكن من السيطرة على فتن العراق وإخماد ثوراتها وخاصة تلك المعاناة التي عاناها الحجاج في القضاء على ثورة عبدالرحمن بن الاشعث في الفترة ما بين ٧٩-٨٤ هـ/ ٦٩٨-٧٠٣م[١] فقد قال الحجاج عندما عزم على البناء في وسط المسافة بين الكوفة والبصرة: «أتخذ مدينة بين المدينتين (يعني الكوفة والبصرة)، أكون بالقرب منهما، أخاف أن يحدث في أحد المدينتين حدث وأنا في المصر الآخر»[٢].

وقد بنى الحجاج لنفسه دار الإمارة في وسط المدينة ملاصقة للمسجد، وجعلها على شكل واسع ليعكس هيبة السلطة وقوتها، ويمكن الدخول إليها من أربع بوابات ضخمة، وأما المسجد فقد جعله على شكل مربع طول ضلعه ١١٠م، بناه من الطابوق والجص، يستند سقفه على أعمدة ضخمة مزينة بالنقوش على أشكال نباتية وهندسية متداخلة بمنظر جميل تدل على روعة الفن الإسلامي، كما جعل حول المدينة سورين يحيطان بها من جميع جهاتها، وبينهما خندق، ولهما أبواب ضخمة تغلق أثناء الليل وتفتح أثناء النهار.

وأما سكانها فقد بنيت لهم الخطط على شكل مثلثات حول المسجد ودار الإمارة، رأس المثلث عند دار الإمارة ليمتد إلى الخلف فتكون قاعدته بعيداً كلما اقتربت من السور الداخلي، وتفصل بين هذه الخطط شوارع تبدأ من المسجد ودار

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦/ ٣٢٤ وما بعدها. ابن أعثم، كتاب الفتوح ج٧/ ١٥٧.
(٢) محمد عبدالستار عثمان. المدينة الإسلامية/ ٣٠٣.

الإمارة، وتنتهي في آخر الأحياء عند السور الداخلي، وهي بعرض ثمانين ذراعاً[1] وكانت تكلفة بنائها أربعين ألف ألف درهم[2].

وبعد أن أكتمل بناؤها سنة ٨٦هـ نقل إليها الحجاج العلماء والصناع وأرباب المال، وأقطع الناس إقطاعاتهم حول المدينة ليعم الخير والرخاء على أهلها[3] كما نقل إليها قواته العسكرية وجعل بين واسط وقزوين مناظر، إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلت النيران فتجرد الخيل إليهم، وكانت قزوين حينئذ ثغراً من الثغور الإسلامية.[4].

يقول المبرد عنها: «ورأيت أنا واسطاً مراراً فوجدتها بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوق الحصر، وكان الرخص موجوداً فيها من جميع الأشياء ما لا يوصف، بحيث أني رأيت فيها كوز زبد بدرهمين، واثنتي عشرة دجاجة بدرهم، وأربعة وعشرين فروجاً بدرهم، والسمن اثنا عشر رطلاً بدرهم، والخبز أربعون رطلاً بدرهم، واللبن مائة وخمسون رطلاً بدرهم، والسمك مائة رطل بدرهم، وجميع ما فيها بهذه النسبة»[5].

غير أن مدينة واسط بدأت تفقد قيمتها بعد وفاة الحجاج سنة٩٥هـ، وبدأت تعود الأهمية السياسية والعسكرية إلى كل من البصرة والكوفة، ثم بعد ذلك إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية بعد أن اكتمل بناؤها سنة ١٤٩هـ/ ٧٦٦م.

---

(١) بحشل. تاريخ واسط / ٢٣.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج٥/ ٤٠٢.

(٣) محمد عبدالستار عثمان. المدينة الإسلامية/ ١٢٣.

(٤) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٠٣.

(٥) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٠٣.

٤- مدن بنيت في العصر العباسي:

أ- بغـــــداد:

بدأ العباسيون دولتهم من الكوفة، حيث كان أبو العباس السفاح أول خلفائهم مقيماً فيها عندما سقطت دولة الأمويين سنة ١٣٢هـ ٧٤٩م، ثم رحل السفاح عن الكوفة إلى الأنبار سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م فاتخذها دار إقامة له، ثم تحول عنها أخوه أبو جعفر المنصور[١] في بداية خلافته فأقام في الهاشمية قرب الكوفة، فكرهها لأنه كان لا يأمن الإقامة فيها بسبب ميل أهل الكوفة بجوارها إلى العلويين[٢]، كما ظهرت الراوندية[٣] فيها، فرغب في الرحيل عنها إلى مكان آخر.

بدأ المنصور بالبحث عن مكان ليقيم عاصمته فيه، فاهتدى إلى المكان الذي بنى فيه مدينة بغداد على نهر دجلة قرب المدائن لموقعه العسكري والاقتصادي، فهو متوسط بين خراسان والعراق والشام، وعلى نهر دجلة الذي يتصل بالخليج العربي فيؤدي شرقاً إلى الهند، والمكان متوسط بين الموصل وأرمينية وأذربيجان والبصرة والكوفة وقريب من بلاد الجبال شرق العراق[٤]، والمكان طيب الهواء ممتنع لوجود الأنهار حوله تحميه من العدوان.

---

(١) أبو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، ثاني الخلفاء العباسيين.

(٢) محمد عبدالستار عثمان. المدينة الإسلامية/ ٣٠٣.

(٣) الراوندية: هم من أهل خراسان ومن أتباع أبي مسلم الخراساني، أرادوا الإفساد في الدين وإثارة الشغب والفوضى ومن جملة آرائهم تناسخ الأرواح وأظهروا ألوهية المنصور فحاربهم وحاربوه حتى كادوا أن يظفروا بقتله.
ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية/ ١١٦.

(٤) ابن طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية/ ١٦١، ٢٩٤.

وقد اختار المنصور موقع المدينة بنفسه، وخط البناء بيده مبتدئاً ذلك فقال: «بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ابنوا على بركة الله»[1].

وعندما عزم المنصور على البناء جلب الصناع ومهرة البنائين والمهندسين، وبدأ البناء سنة ١٤٥هـ، وانتهى منه سنة ١٤٩هـ[2]، وأطلق عليها بغداد بمعنى البساتين، ويطلق عليها أيضاً سيدة البلاد لجمالها واتساعها، ومدينة السلام نسبة إلى دجلة؛ لأنه كان يسمى وادي السلام، وقيل: إن المنصور سماهاكذلك لأنه تفاءل بالسلامة فيها[3].

وقد ذكر صاحب معجم البلدان بأن اسم بغداد كان معروفاً قبل بنائها أثناء فتوحات المثنى بن حارثه الشيباني في خلافة أبي بكر الصديق سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، إذ قال أهل الحيرة للمثنى: «إن بالقرب منا قرية تقوم فيها سوق عظيمة في كل شهر مرة: فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد يقال لها بغداد»[4].

وقد بنيت بغداد على شكل دائري، ولها سور وفيه أربعة أبواب من الجهات الأربعة، باب خراسان من جهة الشرق، وباب الكوفة من جهة الحجاز، وباب الشام من جهة الغرب، وباب البصرة من جهة البصرة وفارس والأهواز وواسط واليمامة والبحرين[5].

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج١/ ٥٤٣- وما بعدها

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج١/ ٥٤٣ وما بعدها.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج٥/ ٩٤، ج١/ ٥٤١ وما بعدها.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج١/ ٥٤٢.

(٥) المصدر نفسه ج١/ ٥٤٤.

كما أمر المنصور أن يكون عرض شوارعها خمسين ذراعاً، والدروب ستة عشر ذراعاً[1]، وقد بلغت تكلفة بنائها ٤,٨٨٣,٠٠٠ دانق[2] لكثرة الاهتمام في تحسين صورتها لإبراز مكانة الدولة العباسية وترسيخ دعائم حكم العباسيين فيها[3] وقد وصفها العلماء والمؤرخون بأوصاف تدل على عظمة بنائها فقيل فيها: «هي مدينة السلام، بل مدينة الإسلام».

«بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظروف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع»[4].

وقد وصفها الطبري بقوله: «إنها بنيت مدورة لئلا يكون الملك إذا نزل إلى وسطها في موضع أقرب منه إلى موضع آخر»[5].

ووصفها القزويني فقال: «إنها أم الدنيا وسيدة البلاد وجنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين ومعدن الطرائف ومنشأ أرباب الغايات، هواؤها ألطف من كل هواء، وماؤها أعذب من كل ماء، وتربتها أطيب من كل تربة، ونسيمها أرق من كل نسيم»[6].

وفي مجال العلم والمعرفة، ازدهرت بغداد بصناعة الورق وتنوع التأليف في سائر أنواع العلوم في القرن الثاني الهجري، وأصبحت دار الحكمة ببغداد جامعة

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي/ ٢٤٢.
(٢) الدانق: عملة كانت متداولة في ذلك الوقت.
(٣) ياقوت، معجم البلدان ج١/ ٥٤٤.
(٤) انظر: ما قيل عنها في ياقوت، معجم البلدان، ج١/ ٥٤٦ وما بعدها.
(٥) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج٨/ ٢٣٩ وما بعدها.
(٦) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد/ ٣١٣.
محمد عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية/ ٢٦٧.

علمية يتزاحم فيها المؤلفون والمترجمون حتى جمعت صنوف العلم والأدب كما جمعت الأساتذه وطلاب العلم الوافدين إليها من جميع بقاع العالم وخاصة في عهد الرشيد وابنه الخليفة المأمون.

وفي عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) ازدحمت بغداد بالأتراك فغلبوا على العرب فكثرت مشاغباتهم وأزعجوا سكانها فخرج بهم المعتصم بالله من بغداد إلى عاصمته الجديدة، سر من رأى (سامراء) وأقام معهم فيها، إلا أن عمر هذه العاصمة كان قصيراً، فرجع الخلفاء العباسيون بعده إلى بغداد وعادت إليها أهميتها السابقة[1].

وفي العصر العباسي الثاني غلب البويهيون على الخلافة العباسية فتحكموا في إدارة شؤونها، ثم جاء السلاجقة فحلوا محلهم وسيطروا على مقاليد الخلافة، وأصبحت بغداد تحت سيطرتهم فقادوا الجيوش وبنوا المساجد والمكتبات والمدارس، فعادت بغداد إلى سابق عهدها من القوة إلى أن جاءها المغول بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م فاستولوا عليها وأزالوا جميع معالم الحضارة فيها.

ب- القاهرة:

مدينة بجانب الفسطاط، يجمعهما سور واحد، وقد بنيت الفسطاط على يد عمرو بن العاص سنة ٢١هـ/ ٦٤١م، ثم بنيت القاهرة بجانبها سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م فشملتها وبقي مسمى القاهرة عليهما معاً.

بنى القاهرة جوهر الصقلي القائد العام لجيوش الفاطميين (العبيدين نسبة إلى أول حاكم لهم بإفريقية عبيد الله المهدي). الذين أقاموا دولتهم بإفريقية

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد/ ٣٨٦-٣٨٧.

(الجمهورية التونسية حالياً) بمساعدة البربر، واتخذوا من مدينة المهدية بإفريقية عاصمة لهم سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م على بعد ٦٠ ميلاً جنوب القيروان ثم توسع الفاطميون من إفريقية إلى مصر حين جاءها القائد الفاطمي جوهر الصقلي بتكليف من الحاكم الفاطمي (العبيدي) المعز لدين الله المنصور أبو تميم معد بن إسماعيل بن أبي القاسم نزار بن عبيد الله الفاطمي، تمهيداً من هؤلاء العبيديين للقضاء على الخلافة العباسية ليحل هؤلاء في الخلافة الإسلامية محلها.

وبعد وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر، سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م دخلت جيوش البربر قادمة من الغرب بقيادة جوهر الصقلي أرض مصر واستولت عليها، وسكن جوهر الصقلي مدينة الفسطاط، ثم وسعها وأطلق عليها القاهرة بعد اكتمال البناء سنة ٣٦٢هـ[1] ثم جاءها المعز لدين الله من المهدية بإفريقية وأصبحت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية.

وظلت القاهرة بيد الفاطميين عاصمة لهم حتى سقوطها ونهاية أمرها على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م فأصبحت مصر كلها تبعاً للخلافة العباسية، كما كانت قبل مجيء الفاطميين إليها.

وحين بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة جعلها أحياء متقاربة، وأطلق على حاراتها أسماء مختلفة منها حارة زويلة، حارة البرانية، حارة الجوانية كما أقام بجانبها بيوتاً للجند ودار الإمارة وقصر الحاكم الفاطمي لحمايته، وبنى حولها سوراً من جميع الجهات لحماية المدينة من هجمات أعدائهم، وجعل له أربعة أبواب هي: باب زويلة في الجنوب، وباب النصر، وباب الفتوح في الشمال،

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٤/ ٣٤١
القلقشندي. صبح الأعشى ج٣/ ٣٤٤.

وباب القراطين في الشرق، وهو الذي أطلق عليه فيما بعد باب المحروق، وباب الفرج في الغرب ثم أضيف إلى السور أبواب أخرى بعد ذلك هي: باب السعادة في الغرب، وباب القنطرة فوق خليج يتصل بنهر النيل.

ثم بنى جوهر الصقلي القصور وبيوت المال والدواوين والمساجد وبيوت السلاح، وأمر بحفر سراديب تحت الأرض تربط قصور حكام الفاطمين لتمكنهم من التنقل خلالها عند الخطر[1]، وأهم ما بناه جوهر الصقلي في القاهرة الجامع الأزهر الذي تحول إلى جامعة لتخريج الطلاب على مذهب الشيعة في زمن الفاطميين، وانتشر هؤلاء الدعاة في بلدان العالم الإسلامي في العراق والبلدان المجاورة لها للدعاية إلى الفاطميين لتقويض أركان الخلافة العباسية، وقد تحول هؤلاء الدعاة إلى عناصر هدم وتدمير للقيم والأخلاق، وقتل وتآمر لقادة المسلمين، بل وإلى التحالف مع الصليبيين عندما جاؤوا إلى بلاد المسلمين في تلك الفترة.

وقد اتسعت القاهرة كثيراً زمن الفاطميين لكثرة سكانها والقادمين إليها من البربر، فاتسعت شوارعها وطرقاتها كما وصفها البغدادي[2].

وكثرت أسواقها، ومنها: سوق الشماعين، وسوق القماصيين، وسوق الدجاجين، وسوق الجوخيين، وسوق الحلاويين.

كما انتشرت فيها الحمامات وتوزعت فيها قنوات المياه الحارة والباردة للاستحمام، وهذه القنوات متصله بغلايات كبيرة تنتقل بعدها المياه إلى أحواض معدة في أماكن معزولة للرجال عن النساء[3].

(١) المقريزي. خطط المقريزي ج١/ ٤٦٩.
(٢) عبداللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار/ ٥٢.
(٣) عبدالرحمن زكي، القاهرة تاريخها وآثارها/ ١٧٩.

كما اهتم الفاطميون بالمكتبات واقتناء الكتب لخدمة عقيدتهم، ومن أشهر هذه المكتبات في مدينة القاهرة مكتبة بيت الحكمة التي حوت أيام الفاطميين ما لا يقل عن ٥٠٠,٠٠٠ مخطوطة.

وقد وصف عماد الدين الأصفهاني (كاتب صلاح الدين الأيوبي) وصف سور مدينة القاهرة فقال: إنه يحيط بالمدينة من جميع الجهات[١] وذكره القلقشندي بأن طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان[٢].

وقد تجدد هذا السور ثلاث مرات، الأولى عند إنشاء مدينة القاهرة، والثانية على يد الوزير الفاطمي بدر الدين الجمالي في عهد المستنصر بالله الفاطمي، والثالثة في عهد صلاح الدين الأيوبي بعد سقوط الفاطميين بناه بهاء الدين قراقوش الأسدي بتكليف من صلاح الدين الأيوبي.

وبعد القضاء على الحكم الفاطمي بمصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م ألغى صلاح الدين جميع مظاهر حياة الترف في قصور الفاطميين، وألغى مبدأ التشيع الذي أقام الفاطميون دولتهم على أساسه، فتحولت جامعة الأزهر إلى دار للعبادة وتخريج طلبة العلم والدعاة على مذهب أهل السنة والجماعة، وبنى صلاح الدين القلعة بجوار جبل المقطم على طرف مدينة القاهرة من الشرق واتخذها مقراً له[٣].

كما جدد صلاح الدين سور مدينة القاهرة وأقام السدود على أطرافها، وبنى فوقها القناطر، وأقام حولها منشآت دفاعية لحمايتها من هجمات البربر أنصار

(١) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ٩٩-١٠٠.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ج٣/ ٣٥٠.
انظر: المقريزي، خطط المقريزي ج١/ ٣٨٠.
(٣) محمد عبدالستار عثمان. المدينة الإسلامية/ ١٥٩.

الفاطميين، وبالغ صلاح الدين في بناء أحواض السفن قرب القاهرة وبناء المساجد والمدارس[1] وازدادت أهمية القاهرة بعد أن اتخذها الأيوبيون عاصمة لهم طوال ما يقرب من قرن من الزمان، حيث وحد صلاح الدين مصر مع بلاد الشام ليواجه الحملات الصليبية المتكرره على بلاد المسلمين.

ثم ضعفت الدولة الأيوبية في حوالي منتصف القرن السابع الهجري لكثرة المماليك الذين قدموا إلى مصر وأقاموا بمدينة القاهرة واستطاعوا أن يسيطروا على مقاليد الأمور بها بعد وفاة السلطان نجم الدين أيوب سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

وفي العصر المملوكي ازدهر البناء والعمران في القاهرة وخاصة بناء المساجد والمدارس والقصور والفنادق والأربطة والأسبلة والمستشفيات.

وكانت بغداد قد سقطت بيد المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، على يد هولاكو فألغى الخلافة العباسية، وأصبحت العراق وفارس وخراسان بيد المغول، إلا أن أحد حكام المماليك بمصر ويدعى السلطان بيبرس أعلن إعادة الخلافة العباسية وجعل مقر إقامة خلفائهم بمدينة القاهرة استعداداً لإعادتهم إلى مقرهم السابق بغداد، إلا أن هذا الأمر لم يتحقق.

وفي سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م سقطت القاهرة بيد السلطان سليم العثماني، فانتهى بذلك عصر الحكم المملوكي لمصر، وبدأت مرحلة جديدة في القاهرة، فأصبحت مقراً لولاة العثمانيين إلى ما يقرب من أربعة قرون.

---

(١) أحمد فكري. مساجد القاهرة ومدارسها ج٢/ ٥١.
محمد عبدالستار. المدينة الإسلامية/ ٨١.

ثانياً: المساجد:

وهي أهم بناء في الدولة الإسلامية، تجمع الناس لعبادة الله وحده لا شريك له، فهي أفضل عمران على الإطلاق، وإن أول بيت وضع للناس لعبادة الله الذي بناه نبي الله إبراهيم عليه السلام بمكة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[4].

وبعده بأربعين سنة بنى إبراهيم عليه السلام مسجد بيت المقدس، فهو ثاني مسجد بني على الأرض بعد الكعبة لحديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي مسجد وضع على الأرض أولاً؟ قال: «المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟. قال: البيت المقدس وبينهما أربعون سنة»[5].

---

(١) سورة الحج/ ٢٦

(٢) سورة إبراهيم/ الآية٣٧.

(٣) سورة البقرة الآيه١٢٧.

(٤) سورة آل عمران/ الآية٩٦.

(٥) فتح الباري ج٦/ ٣٣٦٦.

وهو الذي أسريَ إليه الرسول ﷺ قبل الهجرة من مكة إلى المدينة فصلى فيه بالأنبياء السابقين عليهم السلام، وفي المكان نفسه أقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد الأقصى سنة ١٥هـ/ ٦٣٩ عندما جاء بيت المقدس فاتحاً وأقام بجانبه مسجد قبة الصخرة فوق الصخرة التي عرج عنها الرسول ﷺ إلى السماء، وهذين المسجدين اللذيْن أقام بناءهما بعد ذلك الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان فأكمل مسجد قبة الصخرة سنة ٧٢هـ، وأكمل ابنه الوليد بن عبدالملك بعد ذلك المسجد الأقصى سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م.

وكانت دعوة نبينا محمد ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، وهو يصلي باتجاه الكعبة وبيت المقدس في وقت واحد، ثم هاجر ﷺ إلى المدينة وأقام دولة الإسلام فيها وواصل صلاته هو وأصحابه باتجاه بيت المقدس ثمانية عشر شهراً قبل أن يتوجه بأمر من ربه إلى الكعبة التي أصبحت بعدها قبلة للمسلمين إلى قيام الساعة.

وفور وصوله ﷺ إلى المدينة المنورة أقام بقباء أربعة أيام، وهي المدخل الجنوبي للمدينة المنورة على طريق مكة، فبنى أصحابه ﷺ مسجد قباء في المكان الذي كان يصلي فيه ﷺ، وهو مسجد لا يزال قائماً حتى وقتنا هذا بعد أن جرت عليه عدة توسعات وإضافات، ثم دخل الرسول إلى المدينة المنورة بعد الأيام الأربعة التي قضاها بقباء، وكان أول عمل قام به في المدينة هو بناء مسجده المعروف بمسجد الرسول ﷺ على قطعة أرض اشتراها الرسول ﷺ من غلامين، وكان البناء بسيطاً في بادئ الأمر، فجدرانه من الطين، وسقفه من جريد النخل تغطيه طبقة من الطين، ويستند على عدد من جذوع النخل، ثم تطور بناؤه بعد الفتوحات الإسلامية لتوفر البنائين المهرة، وبعد الاطلاع على البناء والعمران في البلاد المفتوحة.

ولم يكن لمسجده ﷺ قبة أو مئذنة، فكان بلال رضي الله عنه يصعد على جدار قرب المسجد فيؤذن للصلاة، ثم أصبحت المآذن بعد ذلك ضرورة لاتساع العمران وابتعاد المنازل عن المسجد.

ومسجد الرسول ﷺ بالإضافة لكونه مكاناً للصلاة كان مقراً للقيادة تعقد فيه الرايات وتعد فيه الخطط العسكرية ويتهيأ المجاهدون للجهاد وتصدر فيه القرارات والأوامر والوصايا، وفيه كان الرسول ﷺ يحرض المؤمنين على القتال فتخرج السرايا والغزوات، وفيه يتعلم المسلمون أحكام الإسلام، وتنعقد حلقات العلم في جوانبه، وبجواره بنيت حجرات الرسول ﷺ فكانت بيوته بجوار المسجد قريباً من عامة الناس الذين يفدون إلى الصلاة.

وأسس أبو عبيدة عامر بن الجراح مسجد دمشق بعد فتحها سنة ١٤هـ ثم قام الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك بتوسعته وبنائه على أكمل وجه من السعة والجمال، وقد استمر بناؤه في الفترة ما بين ٨٨-٩٦هـ، بعد أن استقدم له البنائين المهرة من شتى أنحاء البلاد الإسلامية[1]، وهو مستطيل الشكل طوله ١٣٦م وعرضه ٣٧م وسقفه محمول على أعمدة مترابطة بواسطة أقواس داخلية، وجدرانه مغطاة بالرخام والفسيفساء الملون، ولا يزال هذا المسجد على عظمته التي بني عليها حتى وقتنا الحاضر.

وبنى عمرو بن العاص مسجده بمصر، مسجد عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط بعد أن أكمل الفتح الإسلامي في مصر امتداداً من حدود فلسطين إلى بلبيس حتى حصن بابليون والإسكندرية وما يسمى الوجه البحري، وهو الجزء الشمالي من مصر وذلك سنة ٢١هـ.

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٤٠.

وبنى عتبة بن غزوان مسجد البصرة في العراق سنة ١٤هـ، وبنى سعد بن أبي وقاص مسجد الكوفة في العراق سنة ١٧هـ.

وفي العصر الأموي تواصلت الفتوحات في شمال إفريقية، فبنى أحد قادتهم ويدعى عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان سنة ٥٥هـ وبنى فيها مسجداً عظيماً فكان أول مسجد للمسلمين في تلك البلاد، ثم جاء حسان بن النعمان الغساني فهزم الروم في إفريقية (الجمهورية التونسية حالياً) فدمر قرطاجنة عاصمتهم وهربوا إلى البحر بمراكبهم وأسس مدينة تونس بمينائها على البحر فيما بين سنة ٧٩-٨٤هـ/ ٦٩٨-٧٠٤م، وبنى فيها جامع الزيتونة، وله أعمدة من الرخام وعددها ١٨٠ عموداً بتيجانها الجميلة، وله محراب مزخرف بنقوش مختلفة تحيط به كتابات بالخط الكوفي، وفوق المسجد قبة تستند على اثنين وثلاثين عموداً، ويلتحق بالمسجد مدرسة لتعليم القرآن الكريم، وقد لعب دوراً مهماً في تعليم طلبة العلم التفسير والحديث والفقه واللغة العربية وسائر العلوم الأخرى[1].

وبنى المسلمون مساجدهم في الأندلس وأشهرها جامع قرطبة الذي بناه عبدالرحمن الداخل (صقر قريش) سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، وجرت له توسعات بعد إنشائه في عهد الأمراء والخلفاء الأمويين، وقد احتوى هذا المسجد على أهم عناصر الفن الإسلامي من قباب ومآذن وأعمدة من الرخام، مرصعة بالفسيفساء الملون، ولكثرتها يتراءى للناظر إليها عندما يدخل المسجد أنها غابة من النخيل.

وللمسجد نوافذ من جميع جوانبه تدخل منها أشعة الشمس في جميع أوقات النهار، وسقفه مزخرف بألوان مختلفة تملؤه آيات من القرآن الكريم. وقد خلد هذا

(١) محمد الباجي، جامع الزيتونه، مجلة التاريخ العربي/ ١٧٠-١٧٥.

المسجد حضارة المسلمين في الأندلس حتى وقتنا الحاضر، وقد نعته المؤرخون بأجمل الأوصاف ومنهم ابن الحميري الذي قال عنه في كتابه الروض المعطار:

«وفيها - أي قرطبة- المسجد الجامع، المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجلِّ مصانع الدنيا كبر مساحة وإحكام صنعة وجمال هيئة وإتقان بنية، اهتم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميماً إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف».

ولم يكمل بناءه عبدالرحمن الداخل فزاد فيه ابنه هشام فجعل له منارة عظيمة على أحد أبراج قصره المجاور له، وبنى له ملحقاً للنساء وملحقاً للوضوء، ثم أضاف إليه بعد ذلك عبدالرحمن بن الحكم (٢٠٧-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م) فوضع له محراباً في غاية الجمال، كما زاد من سقوفه وأبوابه، وتوالت الزيادات فيه بعد ذلك إذ بنى له عبدالرحمن الناصر مئذنة عالية في أعلاها ثلاث تفافيح ذهبية شديدة اللمعان في النهار، كل تفاحة ثلاثة أذرع ونصف وعرض قاعدتها ثمانية أمتار ونصف، وظلت الزيادات تتوالى على هذا المسجد بعد ذلك حتى صار من عجائب الدنيا جمالاً وإتقاناً وسعة وزخرفة، وبعد سقوط الأندلس بيد النصارى أراد أحد ملوكهم هدم هذا المسجد، ولكنه عندما رآه قال قولته المشهورة فيه: «لو كنت قد علمت ما وصل إليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم؛ لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان وما هدمتموه فريد في العالم».

ومن مساجد الأندلس المشهورة كذلك المسجد الجامع بإشبيلية، بناه عبدالرحمن الأوسط بن عبدالحكم سنة ٢١٤هـ/ ٨٢٩م، وقد كتب على أحد أعمدته «يرحم الله عبدالرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدي، الآمر ببنيان هذا المسجد على يد عمر بن عدبس قاضي إشبيلية في سنة ٢١٤هـ وكتب عبدالبر بن هرون»، وهو يشبه مسجد قرطبة في سعته وجمال نقوشة وكثرة أعمدته.

وأما المسجد الجامع بالمرية فبناه عبدالرحمن الناصر سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م مزخرف بزخارف نباتية وهندسية له صحن واسع مليء بأشجار الليمون، في وسطه نافورة ماء جميله وحوض ماء واسع، تعلوه قبه مفصصة جميلة لا تزال قائمة حتى وقتنا الحاضر.

وفي المشرق الإسلامي امتلأت المدن الإسلامية بالمساجد، فقد تسابق الخلفاء والأمراء الأمويون ثم العباسيون في بنائها في كل من مصر وبلاد الشام والعراق وفارس وخراسان، وأشهرها مسجد سامراء، والكوفة وبغداد ومساجد أخرى كثيرة في مرو وسمرقند وبخارى.

وقد تنوعت فنون البناء في مساجد بلاد فارس ونواحيها من حيث الأقواس والأعمدة والأبواب والزخارف والألوان وشكل المآذن والقباب، ويعود ذلك إلى تنوع الشعوب المختلفة التي حملت معها إلى بلاد فارس ونواحيها حضاراتها القديمة مثل: السلاجقة والمغول.

وفي مصر تعاقبت عليها حكومات مختلفه مثل: الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك، ثم العثمانيين بعد ذلك، وقد اختلفت طرق بناء المساجد عند هؤلاء. فقد بنى الفاطميون جامع الأزهر، وأطلقوا عليه هذا الاسم نسبة إلى فاطمة الزهراء تيمناً بها؛ لأنهم أقاموا دولتهم على مذهب التشيع لذرية علي رضي الله عنه، فسموا دولتهم بالدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ؛ ولأن الفاطميين يعتقدون بأن الخلافة حق لأبنائها وذريتهم بعد ذلك.

وقد أرادوا لهذا المسجد أن يكون جامعة تخرج دعاة الشيعة لإرسالهم إلى العالم الإسلامي للدعوة إلى الفاطميين على المذهب الشيعي، للقضاء على

الخلافة الإسلامية العباسية التي أقامت دولتها على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد دخلت جيوش الفاطميين إلى مصر قادمة من إفريقية سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م وبنوا مدينة القاهرة والجامع الأزهر بعد ذلك مباشرة، إذ بناهما قائد الفاطميين جوهر الصقلي، وتمت عمارتهما سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧١م واتخذوا من القاهرة عاصمة لهم، واستمرت كذلك حتى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م عندما مات العاضد الفاطمي آخر حكامهم، وأعلن صلاح الدين الأيوبي قيام الدولة الأيوبية بمصر تابعة إلى الخلافة العباسية الإسلامية.

وقد استمر بناء المساجد عند الأيوبيين في سائر أنحاء دولتهم في مصر وبلاد الشام إلى أن استطاع المماليك أن يحلوا محل الأيوبيين في هذه البلاد، فبنى سلاطينهم الجوامع على أساليب معينة بأن تضم قبورهم إلى جانب المسجد، وهي بدعة ابتدعها المماليك بمصر، وأشهرها في القاهرة جامع السلطان حسن ابن السلطان الناصر محمد (ت٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) بناه السلطان حسن مسجداً وضريحاً له ليدفن فيه، واسع الحجم ومرتفعاً إلى أعلى، كثير الأعمدة مكوناً من عدة طبقات لتكون مساكن للطلاب، محاطاً بخط كوفي من الآيات الكريمة، وهو من أجمل المساجد في العصر المملوكي بمصر في ضخامتة وسعته وزخارفه وضخامة أبوابه، إذ إن مساحته تبلغ ١٠٢٠٠م٢، طوله ١٥٠م وعرضه ٦٨م، ارتفاعه عند واجهته الأمامية ٣٧,٧٠م، له صحن فوقه قبة عظيمة، وفي وسط الصحن حوض ماء كبير، وفوق الحوض قبة كبيرة محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام، وحول الصحن إيوانات أربعة مزخرفة بزخارف جميلة جداً وله منارتان عظيمتان.

ومن الجوامع المشهورة التي بناها المماليك في مصر جامع قايتباي وجامع برقوق وجامع السلطان محمد بن قلاوون شيده سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م وقد أدت المساجد الإسلامية دورها في التعليم بالإضافة إلى كونها أماكن للعبادة، فكانت تقام فيها حلقات الدروس لتعليم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم وحفظه وشرح أحكام الإسلام.

ثالثاً: القصـــور:

لم يحصل تطور كبير في فجر الإسلام في مجال البناء داخل الجزيرة العربية، إذ لم يألف العرب كثيراً حياة المدن، وقد تعودوا على حياة البادية أكثر من السكن داخل المدن لاعتمادهم على الرعي في مواطن العشب، وقد عاش الرسول ﷺ في حجراته بجوار مسجده في المدينة، وكانت هذه الحجرات لأزواجه، وهي بسيطة ومن جذوع النخل يعلوها طبقة من الطين، وهكذا كان أصحابه في المدينة ومنهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، وبعد قيام الدولة الأموية سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م اتخذ الخلفاء الأمويون جميعهم في فترة خلافتهم من (٤٠-١٣٢هـ/ ٦٦٠-٧٤٩م) اتخذوا من دمشق عاصمة، لهم فجاوروا الدول ذات الحضارات السابقة، وورثوا منها فنوناً مختلفة من أنواع العمران، واشتهرت بلاد الشام بكثرة مدنها وقراها العامرة بالسكان، فألف الخلفاء الأمويون حياة المدن واهتموا ببناء قصور لهم في أماكن متفرقة بعضها يناسب رغبتهم في البادية بعيداً عن المدن، وبعضهم رغب في بناء قصور على رؤوس الجبال للإقامة فيها صيفاً، وبعضهم بنى قصوراً له في أماكن دافئة لفصل الشتاء، وقد جلب الخلفاء الأمويون البنائين المهرة لبناء قصورهم، فاتسمت هذه القصور في بلاد الشام بالسعة والجمال ودقة الزخارف والأعمدة الرخامية والفسيفساء

على أشكال طيور وإبل وأشجار بأوراقه وثماره المختلفه، كما اتسمت بكثرة حجراتها وخاصة الجهات العلوية المخصصة للنساء، وأحيطت هذه الجهات العلوية بالنوافذ (المشربيات) من الخشب، مخرمة لدخول الهواء والنور، ولا تسمح بالرؤية من الخارج، وخصصت الأدوار السفلى للاستقبالات، وحول هذه القصور حدائق مليئة بالأشجار المختلفة وخاصة النخيل والعنب.

وقد بنى معاوية بن أبي سفيان قصراً له يدعى قصر الصنوبرة على الشاطئ الجنوبي لبحيرة طبرية بفلسطين قرب حدودها مع سوريا، ليقيم فيه في فصل الشتاء، وبنى ابنه يزيد قصرين له في حوارين وأذرعات الشام في بادية الأردن على حدود العراق، وبنى عبدالملك بن مروان قصر الجابية غرب دمشق، وبنى الوليد بن عبدالملك قصر أسيس جنوب شرق دمشق[1]، وبنى الخليفة هشام ابن عبدالملك قصراً له في مدينة أريحا ليقيم فيه في فصل الشتاء.

ويمتاز قصر هشام بن عبدالملك (قصر المشتى) في مدينة أريحا بكثرة الزخارف المنتشرة على أسواره الخارجية على شكل مثلثات ودوائر هندسية في وسطها ورود وأزهار مختلفة وعناقيد عنب وطيور وحيوانات خرافية[2]، وهناك قصور أموية أخرى في بلاد الشام مثل: قصر خزانة في شرق الأردن، وقصر عمرة، شرقي عمان بحوالي ٧٠كم، وهو من أجمل القصور الأموية لكثرة زخارفه المنقوشة على شكل حيوانات وطيور، ويعتقد أن هذا القصر قد تم بناؤه في أواخر القرن الأول الهجري، وكذلك قصر الحلابات في الجهة الشرقية من الأردن، وقصر الصرح على بعد ثلاثة أميال جنوب شرق قصر الحلابات، وقصر

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٤٤.
(٢) المصدر نفسه/ ٤٨.

خزانة على بعد اثني عشر ميلاً جنوب غرب قصر عمرة في الأردن، ويعتقد أنه بني في أواخر القرن الأول الهجري، وقصر الطوبة جنوب شرق عمان بحوالي ٦٠ ميلاً ويشبه قصر هشام بمدينة أريحا بكثرة زخارفه، ويعتقد أنه بني في خلافة هشام ابن عبدالملك، وبعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م وقيام الخلافة العباسية محلها استطاع الأمويون أن يؤسسوا لأنفسهم إمارة أموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م على يد عبدالرحمن الداخل، فاتخذ الأمويون لأنفسهم قصوراً في الأندلس على طريقة قصورهم نفسها في بلاد الشام.

وقد تعود الخلفاء الأمويون أن يبنوا قصورهم بجوار المساجد، وهي التي كان يطلق عليها دور الإمارة، ومن هذه القصور قصر الإمارة بقرطبة عاصمة الأمويين في الأندلس بناه عبدالرحمن الداخل والذي يعجز وصفه لشدة ارتفاعه واتساع ساحاته وقنوات الماء التي تجري من حوله، والأشجار المحيطة به، ومن هذه القصور أيضاً قصر الكامل وقصر المجدد والحائر والروضة والزاهر والرصافي والمعشوق والرشيق والمبارك والسرور والتاج والبديع وكلها بمدينة قرطبة[1].

ومنها قصر الناعورة بطليطلة وقصر الجعفرية بسرقسطة نسبة إلى أبي جعفر أحمد المقتدر في عهد ملوك الطوائف، وقصر بني حمود بقصبة مالقة، وقصر الحمراء بغرناطة، وتمتاز هذه القصور بجمال بنائها وأسقفها المحلاة بالقرميد المذهب، وأعمدتها الرخامية وجدرانها المكسوة بالفسيفساء. وقد بالغ المؤرخون في وصف هذه القصور إلى ما يشبه الخرافات لولا ما تكشفه الحفريات عن بقايا هذه القصور، ولولا وجود بعض القطع منها الموجودة في متاحف برلين

(١) السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وحضارتهم بالأندلس/ ١٩٠.

ومدريد، حيث تحولت هذه القصور إلى خرائب بعدما تعرضت للنهب والسلب في أوقات المحن والحروب في عصر ملوك الطوائف، وما تعرضت له دول الطوائف بعد ذلك على يد ملوك النصارى.

أما قصور العباسيين في بغداد فقد بنيت متأثرة بالأساليب الفنية الفارسية وبتفضيل الأكتاف والدعامات على الأعمدة، ومنها قصر الجوسق بسامراء بناه الخليفة المعتصم بالله، وقصر الجعفرية بناه المتوكل على الله في مدينة الجعفرية شمال سامراء، وقصر المعشوق بناه المعتمد على الله بجانب الجعفرية[1].

رابعاً: الأسوار:

بناها القادة والأمراء والخلفاء حول المدن والقلاع والحصون لحمايتها من مباغتات الأعداء، فهي من الوسائل الدفاعية في الدولة الإسلامية، وقد وجد الفاتحون المسلمون أسواراً حول المدن التي جاؤوها فشكلت عقبة مانعة امتدت إلى عدة أشهر أمام الجيوش الإسلامية كما هو الحال بسور دمشق وحلب وحمص وبيت المقدس في بلاد الشام وحصن بابليون والإسكندرية بمصر، والمدائن عاصمة الفرس، وقد سقطت هذه المدن بأيدي المسلمين فأبقوا عليها وعلى أسوارها، كما بنى المسلمون أسواراً حول المدن الجديدة التي بنوها خارج الجزيرة العربية مثل مدينتي البصرة والكوفة وواسط وبغداد في العراق، والفسطاط والقاهرة بمصر، والقيروان بإفريقية.

وفي الأندلس بنى عبدالرحمن الداخل سوراً حول مدينة قرطبة، وبنى عبدالرحمن الأوسط سوراً حول مدينة إشبيلية سنة ٢٣٤هـ، وبنى الأمويون أسواراً أخرى حول ماردة والزهراء وقرمونة وبطليوس[2].

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٥٤.

(٢) انظر: السيد عبدالعزيز سالم. تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس/ ٢٢٩ وما بعدها.

وفي هذه الأسوار أبواب من جميع الجهات للدخول والخروج، ولها أسماء بحسب الجهات التي تطل عليها، وترتفع الأسوار إلى أعلى، ملساء من الخارج حتى لا يتمكن العدو من التسلق عليها، وهي عريضة، في أعلاها طريق غير مكشوف يمكن للفارس أن يمشي عليه وهو راكب فرسه، وحافة الطريق مرتفعة إلى أعلى حتى لا تكون الطريق مكشوفة من الجهة الخارجية، وفي أعلى السور فتحات قريبة من بعضها البعض لرمي المقذوفات على العدو من السهام والنبال وغير ذلك، كما يوجد على السور في أماكن متباعدة أبراج يتواجد فيها حراس للمراقبة.

خامساً: الأضرحة:

وغالباً ما تكون من الخشب أو الحجر، مرتفعة إلى أعلى فوق قبر الميت، وقد يرتفع فوق الضريح قبة عالية أو مسجد مجاور له، وقد انتشر هذا النوع من البدع في مصر أثناء حكم الفاطميين والمماليك، كما انتشرت في المغرب والعراق وفارس وخراسان، ويحاط بهذه الأضرحة وما فوقها من القباب كتابة آيات من القرآن الكريم وأدعية للميت بخط كوفي.

سادساً: الأسواق:

وهي منتشرة في المدن الإسلامية القديمة مثل: الكوفة والبصرة وبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وإشبيلية وغرناطة والقدس وعكا وحيفا ويافا وتونس وبيروت، وقد جرت العادة في هذه الأسواق أن تكون طولية ذات ممر طويل وعلى جانبيها الحوانيت العامة ومسقوفة من أعلى، وفي السقف فتحات صغيرة لنفاذ الضوء والهواء منها، وشوارعها مبلطة وعلى جانبيها قناديل للإنارة ليلاً.

سابعاً: الفنادق:

ليقضي فيها الغرباء وأبناء السبيل أيامهم، سواء كانوا تجاراً أو مسافرين، وهي أبنية ذات طابع إسلامي في شكل أبوابها ومداخلها العالية وارتفاعها وحجراتها وأقواسها وأعمدتها وزخارفها وعقودها وأبراجها العالية.

ثامناً: الحمامات:

أعدت للاستحمام، أقسام منها للرجال وأخرى للنساء، وقد بنيت بشكل يضمن لمرتاديها السلامة في مواجهة البرد عند الخروج منها بعد الاستحمام أو مواجهة الحر فجأة، وقد صُمم بناء الحمامات الإسلامية بأن تكون ممرات الخروج منها على مراحل، كما صممت حجرات الحمامات بحيث يجري فيها خطين من المياه أحدهما للماء الحار وثانيهما للماء البارد، وتحت خط الماء الحار نيران لتسخين المياه، وقد انتشرت هذه الحمامات في المدن الإسلامية القديمة مثل: القاهرة ودمشق وبيت المقدس، وقرطبة وغرناطة وغيرها من المدن الإسلامية[1].

تاسعاً: الأربطة:

وهي بمثابة حصون ذات أسوار عالية محاذية للعدو في شمال الشام على حدود بلاد الروم أو على حدود بلاد الصين والهند وما وراء نهر جيحون ونواحي أرمينيا وشمال الأندلس، وتشحن هذه الأربطة بالرجال والسلاح والذخائر والتموين اللازم والماء، والرجال الذين يرابطون في هذه الأربطة هم رجال فرغوا أنفسهم للمرابطة على حدود العدو والجهاد في سبيل الله، وهي التي كان يطلق عيها قديماً المسالح، ويطلق عليها عند المسلمين الثغور الإسلامية.

(١) عبدالعزيز سالم. تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس/ ٢٠٨.

عاشراً: الحصون والقلاع:

وهي مثل الأربطة غير أن الحصون والقلاع قد تكون قريبة من حدود العدو، وقد تكون منتشرة في أماكن متفرقة في الدولة الإسلامية على رؤوس الجبال لتكون في مأمن من العدو، وحول هذه الحصون والقلاع أسوار عالية وأبراج للمراقبة ومملوءة بالرجال والذخائر والطعام والماء، ولها أبواب تفتح عند الحاجة، وهذه الحصون والقلاع منتشرة في بلاد الشام والأندلس مثل: حصن المدور ما بين قرطبة وإشبيلية، وقلعة جابر غربي إشبيلية، وحصن القصر قرب إشبيلية[1] وهناك حصون وقلاع أخرى في بلاد الشام مثل: قلعة حارم قرب حلب، وقلعة بعرين في شمال الشام. وقلعة الربض في شمال الأردن (بمدينة عجلون الآن).

حادي عشر: الخوانك

جمع خانكاه (كلمة فارسية) وهي أماكن ينقطع فيها بعض الناس للعبادة، وهي التي أطلق عليها في العصر العثماني التكايا.

ثاني عشر: البيمارستانات:

وهي المستشفيات والمستوصفات في وقتنا الحاضر، وكانت نساء المسلمين يخرجن مع الجيوش لإسعاف الجرحى ودفن القتلى في الفتوحات الإسلامية كما حصل في معارك القادسية واليرموك وفتوحات بلاد الشام ومصر، وكان أول مستشفى إسلامي متحرك يخرج مع الجيوش الإسلامية هو الذي أقامه الخليفة الوليد بن عبدالملك، ثم تطورت هذه البيمارستانات في العصر العباسي حين بنيت في المدن الإسلامية وعالجت الناس مجاناً.

---

(١) عبدالعزيز سالم. تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس/ ٢٣٦.

ثالث عشر: الأسبلة:

وهي عبارة عن مبان عامة يستريح بها المسافرون أو الذين تنقطع بهم السبل، وهم الذين يطلق عليهم أبناء السبيل.

رابع عشر: الكتاتيب:

لتعليم الصبيه القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم وحفظه، وقد تطورت هذه الكتاتيب إلى مدارس ملحقة بالمساجد لتحفيظ القرآن الكريم ومعرفة أحكام الدين، ومعها ملحقات فوق المسجد أو بجانبه لإيواء الطلاب وأساتذتهم[1]. وهي التي يطلق عليها الأروقة في بعض المساجد الإسلامية مثل: الجامع الأزهر وجامع القيروان وجامع الزيتونة، وقد تطورت هذه المدارس عند السلاجقة في العراق وفارس وبلاد الشام، والتي أشرف على تأسيسها أحد وزراء السلاجقة وهو نظام الملك، لتدريس الطلاب على مذهب أهل السنة والجماعة لرد المذهب الشيعي الذي كانت تحاول نشره الدولة الفاطمية للقضاء على الدولة العباسية.

- العناصر المكونة للعمران الإسلامي:

اهتم المسلمون بالبناء والعمران في سائر أنحاء الدولة الإسلامية وخاصة في بناء المساجد والمدن وإحاطتها بالأسوار لحمايتها، كما اهتموا ببناء الحصون والقلاع لحشد المجاهدين، واهتموا ببناء القصور في عواصمهم والأماكن التي أقاموا فيها في جولاتهم وتنقلاتهم، وظهر الفن الإسلامي بأشكاله المختلفة في جميع أنواع العمران الإسلامي سواء العمران الديني أو المدني أو الحربي، وأهم عناصر البناء الإسلامي كما يلي:

---

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٢٤.

أولاً: المآذن: ومفردها مئذنة وهي ما يبنى على طرف المسجد بشكل مرتفع إلى أعلى ليصعد المؤذن إلى أعلاها فيؤذن للصلاة، وفي عهد الرسول ﷺ، لم يكن لمسجده في المدينة مئذنة للآذان، وإنما كان بلال رضي الله عنه يؤذن للصلاة من فوق جدار مجاور للمسجد[1]، ويعود بناء أول مئذنة للمسجد مئذنة جامع عمرو بن العاص في الفسطاط بمصر بناها مسلمة بن مخلد والي مصر في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ثم أصبحت من ضروريات أبنية المسجد بسبب اتساع العمران وابتعاد المساكن عن المساجد.

والمآذن أنواع منها: الحلزوني ذات القاعدة العريضة ويلفها طريق تدور حولها إلى أعلى، ومنها المآذن المخروطية واللولبية، ومآذن ذات جدران متعددة، أربعة جدران أو ستة أو ثمانية، والمئذنة مرتفعة إلى أعلى من عدة طوابق، فهناك مئذنة لها طابق واحد، أو طابقان أو ثلاثة أو أكثر عندما تكون شاهقة مثل مآذن الجامع الأزهر أو مآذن الجوامع التي بناها المماليك في مصر، أو العثمانيون في سائر أنحاء الدولة العثمانية.

وقد يكون للمسجد مئذنة واحدة أو عدة مآذن وبنيت هذه المآذن على أشكال جمالية مرصعة بالفسيفساء الملون وخاصة الجزء العلوي منها، وبعضها يتدلى حول طوابقها المقرنصات، ولها رؤوس مدببة يعلوها الهلال، وبعضها مزخرف بزخارف نباتية وهندسية، وقد أطلق على المئذنة أسماء متعددة منها:

١- **الصومعة**، وهذا النوع من المآذن يقع فوق بناء يعتكف فيه الزهاد للعبادة بجوار المسجد، وينتشر هذا النوع في شمال إفريقية.

---

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٣٥.

٢- عساس، لأن المئذنة كانت تستخدم للشكف والمراقبة.

٣- المنارة، لهداية السفن على جوانب البحار، كما استخدمت وسيلة لنقل الأخبار بإشعال النيران على المنائر حسب ما يتفق عليه لنقل الأخبار من الثغور عن العدو بأنه سيداهم البلاد بالسفن الحربية أو تسيير الجيوش إلى جهات معينة من بلاد المسلمين.

ثانياً: العقود: عندما يكون سقف البناء منتفخاً على شكل نصف دائرة ينحدر من أعلى إلى أسفل، أو على شكل حذوة الفرس، وقد تكون العقود متصلة مع الأعمدة داخل البناء على شكل أنصاف دوائر لربط الأعمدة مع بعضها البعض.

ثالثاً: الأعمدة: التي تستند فوقها الأسطح، وتكثر هذه الأعمدة أو تقل بحسب اتساع المساجد أو القصور، أغلبها من الرخام، لها من أسفل قاعدة تستند عليها ومن فوقها تاج تحيط به أشكال نباتية أو هندسية أو مقرنصات تتدلى إلى أسفل.

وقد تكون الأعمدة منفصلة عن بعضها البعض أو مترابطة بواسط أقواس، ويمكن أن تكون الأقواس متداخلة ببعضها البعض أو أنها متصلة بالأعمدة فقط، ومنها المضلع والأسطواني، تشبه غابة الأشجار لكثرتها في المساجد والقصور، وخاصة في المساجد والقصور الأندلسية.

رابعاً: الطرق المتعرجة داخل الأسوار: حتى لا يصل العدو إلى داخل المدينة بسهولة فيما لو استطاع الدخول من الأبواب، وتنتشر الكمائن في هذه الطرق المتعرجه للتصدي للعدو ودحره إلى الوراء.

خامساً: المقرنصات: أسلوب معماري إسلامي في الزخارف تتدلى فوق الأعمدة أو القباب أو المآذن أو النوافذ أو الأبواب، وهي حليات جمالية تشبه خلايا النحل على أشكال هندسية أو نباتية تتدلى من أعلى إلى أسفل، أو هي أشكال زخرفية على هيئة منحنيات فوق بعضها البعض، وهي من الحجر أو الجص أو الطوب أو الخشب.

سادساً: الأبراج: على أماكن متفرقة فوق الأسوار، تشبه المآذن ولكنها أقصر منها، ولها نوافذ صغيرة للمشاهدة والمراقبة.

سابعاً: خندق مملوء بالماء حول القلاع أو الحصون: لمنع العدو من اقتحامه بسهولة ويوجد طريق أو ممر فوق الخندق يوصل إلى باب القلعة للدخول إليها.

ثامناً: المتراس: وهو شبكة من الحديد يمكن إسدالها على باب الحصن أو باب السور أو القلعة لتقويتها عندما يتقدم العدو باتجاه هذه الأبواب.

تاسعاً: المشربيات: وهي نوافذ من الخشب المحفور بأشكال جميلة تسمح بالرؤية من الداخل فقط، وعادة ما تكون هذه المشربيات لمساكن النساء في الطوابق العلوية.

عاشراً: الفضاء المكشوف في المباني الواسعة كالمساجد، بحيث يكون جزء أو أجزاء من الأسقف مفتوحة على الفضاء لتسمح للهواء وأشعة الشمس بالدخول إلى وسط المساجد أو القصور.

حادي عشر: صحن واسع أمام المسجد أو القصر به نافورة ماء أو حوض من الماء للوضوء.

ثاني عشر: الأروقة: حجرات لطلبة العلم في ناحية من المسجد يقيمون فيها كما هو الحال في جامع الأزهر، جامع القرويين بالمغرب، جامع الزيتونة بتونس.

ثالث عشر: المقصورة: بناء صغير في ناحية من المسجد يصلي فيه الخليفة أو الوالي في معزل عن المصلين لحمايته، وأول من اتخذ المقصورة معاوية بن أبي سفيان بعد الاعتداء الذي تعرض له من الخوارج، وقد تكررت محاولات الغدر التي تعرض لها الخلفاء سابقاً أثناء الصلاة كما وقع مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما طعنه أبو لؤلؤه فيروز المجوسي أثناء صلاة الفجر. وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما طعنه عبدالرحمن بن ملجم الخارجي في مسجد الكوفة أثناء صلاة الفجر.

رابع عشر: التيجان، في أعلى الأعمدة، يستند عليها السقف مباشرة، وعليها أشكال نباتية وهندسية.

خامس عشر: الأبواب: وهي ضخمه خاصة أبواب المساجد والأسوار، تفتح عند الحاجة في النهار وتغلق في الليل، وقد يكون الباب قطعة واحدة أو قطعتين من الخشب، عليها زخارف جمالية، مطعمة بقطع من العاج أو العظم على أشكال دوائر أو مثلثات، يتخللها كتابات بخط كوفي، وعند إغلاق أبواب الأسوار ليلاً يوضع خلفها دعامات قوية لتقويتها، ويوجد في السور عادة عدة أبواب من الجهات المختلفة، ويطلق عليها أسماء بحسب الجهات التي تطل عليها مثل: أبواب بغداد وهي: باب خراسان يطل على جهة خراسان، وباب الشام، لأنه يطل على ناحية الشام، وباب الكوفة؛ لأنه باتجاه الكوفة[1].

(١) المسعودي، مروج الذهب ج٢/ ٢٣٢.

وأما أبواب مدينة القاهرة فهي باب زويلة في جهة الجنوب، وباب النصر وباب الفتوح من ناحية الشمال، وباب القراطين في الشرق، وباب السعادة والقنطرة باتجاه الغرب[1].

سادس عشر: المنابر: في مساجد المسلمين، وقد اتخذ الرسول ﷺ له في مسجده بالمدينة ثلاثة جذوع من النخل فوق بعضها البعض، فكان يقف على الدرجة الثانية ليخطب في الناس، ثم يجلس على الدرجة الأخيرة، ثم انتشرت هذه المنابر في جميع مساجد المسلمين للخطبة من أعلاها في جماعة المسلمين، ويمكن للخطيب أن يصعد إلى أعلى من خلال درجات من أسفل إلى أعلى يحيط بها زخارف خشبية وكتابات بخط كوفي، يتخللها أشكال هندسية ونباتية جميلة، وأشهر هذه المنابر: منبر المسجد الأقصى الذي صنع له في لبنان ثم أرسله له صلاح الدين الأيوبي، وهو الذي أحرقه اليهود سنة ١٩٦٨م، ثم منبر مسجد القيروان، ومنبر مسجد الكوفة، ومنبر جامع الأزهر.

سابع عشر: المحاريب: وهي عناصر أساسية في المساجد الإسلامية، ومكان المحراب في الواجهة الأمامية من المسجد، يقف فيه الإمام ليؤم المصلين صلاة الجماعة، وقد دخلت الزخرفة في المحاريب وخاصة في استخدام الفسيفساء الملون.

ثامن عشر: القباب: فوق القصور والمساجد، وقد يكون فوق المسجد أو القصر قبة عظيمة منتفخة إلى أعلى أو عدة قباب صغيرة بجانب بعضها البعض، ويكثر هذا النوع من القباب في العصر العثماني، وأشهر القباب الإسلامية ما هو موجود فوق أسطح المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ وقبة مسجد الصخرة والمسجد الأقصى بالقدس والمسجد الأموي بدمشق[2].

(١) زكي محمد حسن، فنون الإسلام/ ٦٦.

(٢١) زكي محمد حسن، فنون الإسلام/ ٥٣ وما بعدها.